الفصل الأول

الكتاب وسيلة إعلامية

ما الكتاب؟

ليس أمامنا من سبيل لمعرفة الكتاب إلا أن نبدأ بتعريفه. وفى قواميس اللغة ومعاجمها نجد المعنى اللغوى للكتاب. وفى دوائر المعارف نكاد نصل إلى المصطلح المعاصر لتعريف الكتاب. ففى لسان العرب[1] يزودنا ابن منظور بمرادفات الكتاب، فهو الصحيفة والدواة وهو الفرض والحكم والقدر وهو

---

(١) فى لسان العرب:

كتب: الكتاب: معروف، والجمع كتب وكتب. كتب الشىء يكتبه كتبا وكتابا وكتابة، وكتبه: خطه، قال أبو النجم:

أقبلت من عند زياد كالخرف
تخط رجلاى بخط مختلف
وتكتبان فى الطريق لام ألف

قال: ورأيت فى بعض النسخ يكتبان، بكسر التاء، وهى لغة بهراء يكسرون التاء، فيقولون تعلمون.

والكتاب أيضا: الاسم، عن اللحيانى. الأزهرى: الكتاب اسم لما كتب مجموعًا، والكتاب مصدر والكتابة لمن تكون له صناعة، مثل الصياغة والخياطة.

والكتبة: اكتابك كتابا تنسخه. ويقال اكتب فلان فلانا أى سأله أن يكتب له كتابا فى حاجة. واستكتبه الشىء أى سأله أن يكتبه له. ابن سيده: اكتبه لكتبه. واكتتبه: كتبته. وفى التنزيل العزيز: اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا، أى استكتبها.

والكتاب: ما كتب فيه. وفى الحديث: من نظر فى كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر فى النار، قال ابن الأثير هذا تمثيل، أى كمن يحذر النار فليحذر هذا الصنيع. وقيل معناه كأنما ينظر إلى ما يوجب عليه النار، قال: ويحتمل أنه أراد عقوبة البصر لأن الجناية منه، كما يعاقب السمع إذا استمع إلى قوم، وهم له كارهون. قال: وهذا الحديث محمول على الكتاب الذى فيه سر وأمانة، يكره صاحبه أن يطلع عليه، وقيل: هو عام فى كل كتاب.

وفى الحديث: لا تكتبوا عنى غير القرآن.

وفى قوله تعالى: ﴿والطور وكتاب مسطور﴾ قيل الكتاب ما أثبت على بنى آدم من أعمالهم. والكتاب: الصحيفة والدواة، عن اللحيانى.

وكتب الرجل وأكتبه علمه الكتاب. والمكتب: المعلم والمكتب: الذى يعلم القراءة. والمكتب موضع الكتاب. وهما موضع تعليم الكتاب والجمع الكتاتيب.

ورجل كاتب. والجمع كتاب وكتبة. وحرفته الكتابة والكتاب: الكتبة. ابن الاعرابى: الكاتب عندهم العالم.

قال الله تعالى: ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون؟﴾ وفى كتابه إلى أهل اليمن. وقد بعثت إليكم كاتبًا من أصحابى، أراد عالمًا، سمى به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة، أن عندهم العلم والمعرفة، وكان الكاتب عندهم عزيزًا، وفيهم قليلًا.

والكتاب: الفرض والحكم والقدر، قال الجعدى: يا ابنة عمى. كتاب الله أخرجنى عنكم، وصل أمنعن الله ما فعلا؟.

والكتاب يوضع موضع الفرض. قال الله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص فى القتلى﴾. وقال عز وجل: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ معناه: فرض. =

اسم لما كتب مجموعًا. وفى محيط المحيط[٢] يذكر بطرس البستانى أن الكتاب مصدر، وما يكتب فيه تسمية بالمصدر، سمى به لجمع أبوابه وفصوله ومسائله. وقد غلب الكتاب فى العرف العام على جميع الكلمات المنفردة بالتدوين. وتقول موسوعة (لاروس) الفرنسية[٣] إن كلمة كتاب فى الفرنسيه Livre مشتقة من الكلمات اللاتينية Liber، والكتاب مجموعة من الأوراق المطبوعة والمجمعة فى مجلد (volume) واحد أيا كان شكل التجليد. وهناك تعريف آخر بأنه مؤلف من النثر أو الشعر على شيء من التوسع والإسهاب. ويعرف الكتاب أحيانًا بأنه فرع من المصنفات. والتعريف المجازى للكتاب بأنه مصدر من مصادر التعليم والثقافة، وتعبير بسكال (Pascal) بأن الضمير أعظم كتاب فى الأخلاق. أما دائرة المعارف البريطانية[٤] فترى أنه لكى نحدد تعريف الكتاب فمن الضرورى أن نبحث عن

= انظر:

لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المجلد الأول – دار صادر ودار بيروت ١٩٥٥م – ١٣٧٤ هـ – ص٦٩٨ و ٦٩٩ و ٧٠٠.

(٢) فى محيط المحيط:

كتب الكتاب يكتبه كتبا وكتبه وكتابه خطه – والكتابة اسم لانها صناعة كالتجارة والعمارة. الكاتب اسم فاعل والعالم ومن عمله الكتابة والجمع كاتبون وكتاب وكتبه. ومنه الكتبة عند اليهود لعلماء الناموس وقراءته ومفسريه للشعب. والكتاب مصدر وما يكتب فيه تسمية بالمصدر، سمى به لجمعه أبوابه وفصوله ومسائله. والجمع كتب وكتب. والدواة والتوراة والصحيفة والفرض والحكم والقدر. (لاحظ لم يذكر القرآن) وفى المصباح، وتطلق الكتبة والكتاب والمكتوب ويطلق على النزل وعلى ما يكتبه الشخص ويرسله. قال أبو عمرو سمعت أعرابيًا يمانيًا يقول فلان لغوت جاءته كتابى فاحتقرها، فقلت أتقول جاءته كتابى؟ فقال أليس بصحيفة، قلت ما اللغوب؟ قال: الأحمق. وقد غلب الكتاب فى العرف العام على جميع الكلمات المنفردة بالتدوين وفى عرف النحويين على كتاب سيبويه. وفى عرف الأصوليين على أحد أركان الدين. وفى عرف المصنفين على طائفة من المسائل اعتبرت منفردة عما سواها. وأهل الكتاب الذين لهم كتاب منزل كالنصارى واليهود.

والكتابة مصدر وشاع استعمال الكتابة بمعنى تصوير اللفظ بحروف هجائية لأن فيه جمع صور الحروف وأشكالها واستعمال الكتاب فى الحروف والكلمات المجموعة إما فى اللفظ وإما فى الخط بجعل المصدر بمعنى المفعول. والكتبة مصدر واكتتابك كتابا تنسخه. والكتبى بائع الكتب وحافظها. والمكتبة موضع وضع الكتب جمع مكاتب والمكتب معلم الكتابة.

انظر:

محيط المحيط لبطرس البستانى – المجلد الثانى – (مكتبة لبنان) بيروت – ١٩٧٠م ١٣٨٦ هـ – ص ١٧٨٩، ص ١٧٩٠.

(٣) فى «موسوعة لاروس» الفرنسية:

كلمة (Livre) فى الفرنسية مشتقة من الكلمة اللاتينية (Liber) وهى مجموعة من الأوراق المطبوعة والمجمعة فى (Volume) مجلد واحد أيا كان شكل التجليد. وهناك تعريف آخر بأنه مؤلف من النثر أو الشعر على شيء من التوسع والإسهاب. وتعريف بأنه فرع من المصنفات. والتعريف المجازى للكتاب بأنه مصدر من مصادر التعليم والثقافة، وعلى حد تعبير بسكال (Pascal) بأن الضمير اعظم كتاب فى الأخلاق.

وثمة مسميات خاصة للكتاب مثل كتاب القدر (Livre du Destin) وهو كما تقول «موسوعه لاروس» كتاب متخيل يفترض انه كتبت عليه جميع أحداث المستقبل. والكتاب الذهبى (Livre d'or) وهو كانت تنقش عليه بحروف، من الذهب أسماء العائلات النبيلة فى مدينة البندقية فى القرون الوسطى. و (كتاب الموتى) الفرعونى (Livre des Morts) وهو عبارة عن طقوس الموتى، وكانوا يضعون نسخة منه فى تابوت الميت.

Grand Larousse encylopedique- tome sixieme- Libraire- Larousse- paris- 1962- Article (le livre)- P. 799.

(٤) فى دائرة المعارف البريطانية:

=

بعض السمات الثابتة فى الكتاب،الكى نصل إلى تعريف محدد له. وأبرز سمة للكتاب هى أنه يقصد به أن يكون وسيلة اتصال. ولقد كان هذا القصد هو الغرض من الكتاب فى أشكاله المختلفة، منذ ألواح الطين البابلية ولفائف البردى المصرى، ثم الكتاب من الرق فى العصور الوسطى، إلى الكتاب المطبوع على الورق فى عالمنا المعاصر، ثم الميكروفيلم وغير ذلك. ويصدق هذا القصد على تنوع محتوى الكتاب، فمسرحيات «شكسبير» والمنشورات التافهة يستويان فى السمة الرئيسية للكتاب بأنه وسيلة اتصال. والسمة الثانية هى أن الكتاب يستخدم الكتابة أو نظامًا آخر من الرموز المرئية مثل الصور أو (النوتات الموسيقية) لإيصال المعنى. والسمة الثالثة هى نشر الكتاب بمعنى توزيعه. وعلى ذلك فالكتاب – كما ترى دائرة المعارف البريطانية – رسالة على قدر كبير من الطول والإسهاب، كتبت بخط اليد أو طبعت وقصد بها الانتشار والتوزيع، وسجلت على مواد خفيفة لكنها قابله للاستمرار والبقاء بدرجة توفر إمكانيات الحمل والنقل بسهولة نسبية. والغرض الرئيسى من الكتاب أن يحمل رسالة بين الناس. وهو بهذا المعنى يتعدى حدود الزمان والمكان ليعلن ويحفظ وينقل المعرفه.

ولقد عرفت منظمة (اليونسكو) الكتاب بأنه المطبوع غير الدورى الذى تصل عدد صفحاته إلى ٤٩ صفحة على الأقل غير الغلاف. ولكن هذا التعريف لا يعبر عن شىء، وإنما هو تحديد للأغراض الإحصائية. وللتفرقة إحصائيًا بين الكتاب والكتيب والنشرة.

وقد يطلق الكتاب على كتاب بعينه فالقرآن كتاب الله الأشهر عند المسلمين، ونحن نعلم من كتب الله التوراة والإنجيل والصحف التى أنزلت على إبراهيم. والكتاب فى عرف النحويين يطلق على كتاب سيبويه، وكتاب الموتى عند الفراعنة ما يجمع فى سطوره الطقوس اللازمة للميت، وكانوا يضعونه فى تابوت موتاهم. والكتاب الذهبى فى مدينة البندقية فى العصور الوسطى هو الكتاب الذى كانت تسجل فيه بحروف من الذهب أسماء العائلات النبيلة فى ذلك الوقت.

وعلى ضوء هذه التعريفات المختلفة نجد أنها تؤدى إلى فكرة محورية هى أن الكتاب وسيلة إعلام.

ترى دائرة المعارف البريطانية أنه لكى تحدد تعريف الكتاب فمن الضرورى أن نبحث عن بعض السمات الثابتة فى الكتاب لكى نصل إلى تعريف له. وأبرز سمة هى أن الكتاب قصد به أن يكون وسيلة اتصال. وقد كان هذا هو الغرض من الأشكال المختلفة التى عهدها الكتاب مثل ألواح الطين البابلية ولفائف البردى المصرى. ثم الكتاب فى العصور الوسطى من الرق ثم الورق المطبوع المعاصر و (الميكروفيلم) وغير ذلك. ويصدق هذا أيضا على التنوعات المختلفة فى المحتوى ومسرحيات شكسبير التى نشرت عام ١٦٢٣، والمنشورات التافهة يستويان فى تعريفنا للكتاب بأنه وسيلة اتصال. السمة الثابتة هى أن الكتاب يستخدم الكتابة أو نظاما آخر من الرموز المرئية مثل الصور أو (النوتات) الموسيقية لايصال المعنى. السمة الثالثة هى نشر الكتاب لتوزيعه. فعمود معبد من المعابد يحمل رسالة محفورة عليه ليس كتابا. وعلى العكس الملصقات التى يسهل حملها والتى يقصد منها جذب نظر المارين والعابرين لا تعد أيضا كتبا. كذلك الوثائق الخاصة لا تعد كتبا. وعلى ذلك فالكتاب هو رسالة على قدر كبير من الطول والإسهاب كتبت بخط اليد، أو طبعت وقصد بها الانتشار والتوزيع وسجلت على مواد خفيفة لكنها قابلة للبقاء والاستمرار بدرجة توفر إمكانيات الحمل والنقل بسهولة نسبية. والغرض الرئيسى من الكتاب أن يحمل رسالة بين الناس تتوقف على سمتين هما القابلية للنقل والاستمرارية أو الدوام. والكتاب بهذا المعنى يتعدى حدود الزمان والمكان ليعلن وينشر ويحفظ وينقل المعرفة. وفى كل مجتمع مثقف نجد الكتب عنيت بحفظ ونشر المعرفة.

Encyclopaedia Britannica- Volume 3- William Benton Publisher- London- 1966- Article: Book- P. 919 col. 2.

والقول بأن الكتاب وسيلة إعلام نتيجة منطقية لكافة تعريفات الكتاب، ونتيجة منطقية لتاريخ الكتاب فى الوقت نفسه، ولحاضره ومستقبله.

أى الكتب وسيلة إعلام؟

إن السؤال الجدير بالاهتمام هو: هل كل الكتب وسيلة إعلام؟ أم أن كتبًا بعينها تعد وسيلة إعلام؟

ما دمنا قد قررنا بأن الكتاب وسيلة إعلام فإن ما ينطبق على وسائل الإعلام ينطبق عليه. فالكتاب بصفة عامة وسيلة إعلام. وهذا القول يوازى القول بأن التليفزيون وسيلة إعلام، أو أن الصحيفه وسيلة إعلام. والبرنامج العلمى الشديد التخصص فى التليفزيون - وإن حظى بجمهور قليل - لا يسقط عن التليفزيون صفته الإعلامية، والبرامج التعليمية فى التليفزيون تعادل الكتاب المدرسى - فى عالم نشر الكتب - فى كثير من الوجوه. وما يقال عن التليفزيون يمكن تطبيقه على الصحف، فالمجلات المتخصصة الشديدة التخصص لم تخرج المجلات بوجه عام من صفتها الإعلامية.

نخلص من ذلك إلى القول بأن الكتاب جملة أو الكتاب بصفة عامة وسيلة إعلام، ينطبق عليه ما ينطبق على مثيله من الوسائل. وكلما كان الكتاب فى الثقافة العامة وغير متخصص، كلما خاطب جمهورًا واسعًا، وكلما أوغل فى التخصص كلما قل جمهوره. وقد يكون التخصص عامًّا مثل كتب تربية الأطفال، أو الشعر. وقد يكون التخصص خاصًّا مثل النقد المقارن أو جراحة الأنف. وعلى قدر درجة التخصص يقاس جمهور الكتاب. فكتب الهندسة والطب مثلا عندما تتناول العلم والنظريات العلمية والمعادلات تصبح كتبًا علمية وحسب. ولكنها إذا تناولت الهندسة أو الطب مثلا باعتبارها من المعارف العامة وباعتبارها زادًا ثقافيًّا إنسانيًّا، أو باعتبار ضرورات الحياة اليومية، أو الضرورات الاجتماعية فإنها تصبح كتبًا فى الثقافة العامة، وهكذا..

خصائص الكتاب:

لعل أهم ما يبين خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام هو إجابة السؤال المتعلق بهويته. ذلك السؤال: هل الكتاب صناعة أم رسالة؟

ولطالما أثير فى تاريخ الدراسات الصحفية هذا السؤال التقليدى المعروف هل الصحافة رسالة أم صناعة؟ ولقد كانت إجابة هذا السؤال حتى القرن العشرين الميلادى فيها قولان مختلفان. القول الأول يرى أن الصحافة رسالة سامية يجب أن تترفع عن الربح وأن القائمين عليها هم رسل الإرشاد والتوعية للشعوب. والقول الثانى يرى أن الصحافة مجرد صناعة مثل غيرها من الصناعات، وأن هدفها الأول هو تحقيق الربح، بل إنها تملك وسيلة تحقيق الربح والنفوذ معا.

وفى القرن العشرين أصبح السؤال حول رسالة الصحافة وصناعة الصحافة ليس بالبساطة الأولى، ولم تعد الإجابة عن السؤال فيها قولان مختلفان. بل أصبحت الإجابة تحوى القولين معًا باعتبارهما وجهين متلازمين ومتفاعلين. لأنه تبين أن الصحافة صناعة، ولكنها ذات طبيعة خاصة. لأن الجانب المعنوى مرتبط بالجانب المادى ارتباطًا عضويًّا، فالمطبعة والورق والأحبار تعمل مع الفكر فى كل يوم وفى كل عدد وهكذا الكتاب.

ويرى الدكتور سيد أبو النجا[١] أن من يقول إن الكتاب رسالة كمن يقول إن النظافة من الإيمان. ومن يقول إنه صناعة كمن يقول إن النظافة ماء وصابون وثلاجة ومجار تحت الأرض. والصناعة الجيدة هى التى تجعل كتابًا يروج والصناعة السيئة هى التى تجعل مثيله يفشل. لأن مقومات السلعة الجيدة عندما تتوفر للكتاب من ورق جيد وطباعة أنيقة تحقق النجاح. وعندما يصبح مثيل هذا الكتاب مطبوعًا بأحرف مشوهة وحبر سيئ وتجليد رخيص لا سبيل أمامه غير الفشل والبوار. ويؤكد الدكتور أبو النجا على أن الكتاب سلعة كسائر السلع، لا يأخذ سبيله إلى الأسواق باعتباره رسالة وحسب، وإنما يشق طريقه باعتباره رسالة، وبمقوماته الصناعية، وبسعره المنافس، وتسويقه الناجح وتمويله المدروس، وبالإعلان عنه فى جميع نطاق الطلب عليه. والكتاب الذى لا يتمكن من بيع نسخة لا يتمكن بطبيعة الحال من إبلاغ رسالته. فإذا لم يحدث اللقاء بين المؤلف والقارئ فوق صفحات الكتاب فبالخيبة المؤلف فيما سطر من رأى، وبالخيبة الناشر فيما دفع من مال، وبالخيبة الطابع فيما أنجز من ملازم، بالخيبة الموزع فيما بذل من جهد. كل هذا أصبح عبثًا لأن القراء لم يستفيدوا منه. إنه - على حد تعبير الدكتور أبو النجا - وليمة أعرض عنها الطاعمون!.

وإذا كانت الإجابة عن هوية الكتاب توضح لنا شيئاً من خصائصه، فإن موقع الكتاب بين حلقات الإعلام أو الاتصال تجلى لنا من خصائصه جانبًا ثانيًا. فأين يقع الكتاب بين دوائر الاتصال الشخصى أو المباشر، ثم الاتصال الجماهيرى، ثم الاتصال الحضارى ؟

نستطيع القول بأن الكتاب يجمع بين فضائل ومسيلة الاتصال الجماهيرى بحكم الأعداد المطبوعة منه، وبين فضائل الاتصال المباشر لأن القارئ لابد وأن يخلو للكتاب وأن يتهيأ للقراءة. والكتاب فى دائرة الاتصال الحضارى يحظى بموقع فريد. وتقف بعض الكتب كأنها علامات بارزة فى نقل التراث الحضارى من جيل إلى جيل ومن حضارة إلى أخرى. ومثال ذلك كتاب (أقوال الآباء) الفرعونى الأصل والمجهول المؤلف، والذى فقد أصله الهيروغلوفى، وترجم من اللغة اليونانية إلى اللاتينية فى القرن الخامس الميلادى، ثم إلى عدد من اللغات القديمة فى ظل الكنيسة، وكتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية، وكتاب الأمير لمكيافلى، وكتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب الإلياذة، وكتاب رأس المال لكارل ماركس، وكتاب كليلة ودمنة.

وتمثل الترجمة الجانب الأساسى فى مجال الكتاب باعتباره ومسيلة اتصال حضارى. ويحدثنا التاريخ عن اهتمام العرب بترجمة أهم الكتب اليونانية إلى اللغةالعربية. وأن حركة الترجمة قد بدأت مع الدولة الأموية ثم بلغت شأنًا كبيرًا فى الدولة العباسية، وبخاصة فى عصر المأمون الذى اهتم بالترجمة اهتمامًا خاصًا، وأنفق عليها بسخاء.

ثم جاء الدور على أوربا فى نهضتها الحديثة لتترجم كتب العرب إلى اللاتينية، ولتترجم الكتب اليونانية من النص العربى. ومن هذا الباب الواسع كان الكتاب سفير الحضارات. لقد دخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا. وذلك بإنشاء مكتب للمترجمين فى طليطلة، بدأ منذ سنة ١١٣٠م ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية، تحت رعاية رئيس الأساقفة «ريمون»، وكللت أعماله فى الترجمة

---

(٥) تقديم كتاب (صناعة الكتاب من المؤلف إلى الناشر إلى القارىء. (انظر قائمة مصادر البحث ومراجعه).

بالنجاح، ولم يتوان الغرب فى أمر هذه الترجمة فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى وابن سينا وابن رشد وغيرهم إلى اللغة اللاتينية، بل نقلت إليها أيضا كتب علماء اليونان التى كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم، كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب. والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليونانى القديم إلا من ترجمتها إلى اللغة العربية، وبفضل هذه الترجمة أطلعت أوربا على كتب اليونان التى ضاع أصلها اليونانى.

وفى عالمنا المعاصر تمثل ترجمة الكتب فى أغلبها اتجاهًا ذا تدفق واحد، من الحضارة الأوربية المعاصرة إلى العالم الثالث. وقليل من كتب العالم الثالث التى تحظى بالترجمة إلى إحدى اللغات الأوربية. لذلك كانت ضمن مقترحات مصر فى مؤتمر السياسات الثقافية الذى عقد فى المكسيك خلال يوليو ١٩٨٢ تحت مظلة منظمة «اليونسكو» اقتراح بإنشاء مركز عالمى للترجمة يتبع منظمة «اليونسكو»، تكون مهمته تلقى ما ترشحه الهيئات الثقافية فى دول العالم الثالث من أعمال فكرية وأدبية وفنية وترجمته فى وقت واحد إلى اللغات الأوربية، وطبعه ونشره وتوزيعه فى كل الشعوب التى تتكلم هذه اللغات، مع الالتزام بكل الحقوق الخاصة بالمؤلف ودار النشر الأولى، حتى يمكن تعريف المثقف العالمى بإنتاج مثقفى دول العالم الثالث.

كذلك من الكتب التى تذكر فى وسائل الاتصال الحضارى إنتاج المستشرقين، والمعاجم المزدوجة اللغة.

وإذا كانت الدوائر الإعلامية من شخصى إلى جماهيرى إلى حضارى قد أسهمت فى إجلاء خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام، فإن مركزًا آخر لدوائر الإعلام من الناحية الجغرافية يجلى لنا خصائص الكتاب. فأين يقع الكتاب فى دوائر الإعلام المحلى أو الإقليمى، ثم الوطنى أو القومى، ثم الدولى أو العالمى ؟.

إن الكتاب بصفة عامة لابد وأن يعكس الثقافة التى ينتمى إليها. إن الاطلاع على كتاب مدرسى فى قواعد اللغة العربية والتعبير فى الأزهر المعاصر، أو فى مركز من مراكز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يختلف ثقافيًا عن كتاب مدرسى فى قواعد اللغة الفرنسية والتعبير فى مدرسة فرنسية، أو فى مركز ثقافى فرنسى فى قارات العالم. وإذا كان المثل الذى نضربه بقواعد اللغة فما بالك بالأدب مثلاً. إن الكتاب صورة من الثقافة والبيئة التى ينتمى إليها. ولكن ذلك لا يقف عائقًا أمام انتشار الكتاب من دائرة الإعلام المحلى أو الإقليمى إلى دائرة الإعلام الوطنى أو القومى، ثم إلى دائرة الإعلام الدولى. بل إن الطعم الخاص والمذاق الخاص للكتاب، باعتباره انعكاسًا لثقافة ينتمى إليها وانعكاسا لبيئة نبت فيها وخرج منها يعد عاملاً هامًا فى انتشاره دوليًا، إذا تحققت له شروط النجاح.

وتحاول الدول من جانب آخر أن تجعل من كتبها وسيلة يمكن الاعتماد عليها فى مجال الإعلام الدولى. لقد أدركت الجهات المسئولة عن الإعلام الدولى والإعلام الخارجى فى وقت مبكر أهمية الكتاب باعتباره وسيلة هامة للإعلام الدولى أو الإعلام الخارجى. لقد كان من بين أول المشروعات الإعلامية التى نظمتها وزارة الخارجية الأمريكية بالتعاون مع مؤسسات غير رسمية إصدار كتاب فى

عام١٩٤٣ حول تاريخ الولايات المتحدة[٦]. وأشرف على إصداره مجموعة من الباحثين فى جامعة (برنستون). وتم نشره فى العالم العربى.

ولقد قامت وزارة الخارجية الأمريكية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بتزويد العديد من المكتبات العربية العامة بمجموعات من الكتب الأمريكية. وكان ذلك فى نطاق النشاط الإعلامى المباشر وغير المباشر. وقد استقبلت المكتبات العربية الهبات الأمريكية من الكتب بالترحاب، وبخاصة أنها كانت تفتقر إلى الكتب الغربية التى انقطعت بسبب ظروف الحرب.

وفى عام ١٩٧٧ طورت وكالة المعلومات الأمريكية التى أصبح اسمها وكالة الاتصال الدولى الأمريكية USICA نشاطها وذلك باستئناف برنامج ترجمة الكتب الأمريكية للغة العربية الذى كان قد توقف فى أعقاب حرب ١٩٦٧، ثم بإنشاء مكتبات بعضها تابع للمؤسسات التعليمية الأمريكية مثل مكتبة الجامعة الأمريكية فى القاهرة وفى بيروت.

ويوضح تقرير لجنة مشكلة لبحث مشكلات الإعلام العالمى فى نطاق «اليونسكو» (١٩٧٧) أن الكتب تعتبر وسيلة إعلام جماهيرية أولى، فبرغم تطور المنافسة بعد ظهور أشكال جديدة للاتصال بالجماهير ظل عدد القراء فى تزايد مستمر. فمن عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٧٦ زاد إنتاج الكتب فى العالم زيادة مطردة إلى أن تضاعف، هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار عدد عناوين الكتب الصادرة فى كل سنة، أما إذا اعتبرنا عدد النسخ فإن الرقم يصبح ثلاثة أضعاف ما كان من قبل. وفى منتصف العقد الثامن من القرن العشرين أصبح يوجد فى الأسواق أكثر من ٥٩٠٠٠٠ كتاب طبعت منها حوالى ثمانية مليارات من النسخ، وكان من أهم أسباب هذا التزايد هو التغير الجذرى الذى طرأ بعد الحرب العالمية الثانية على الوسائل الفنية لإنتاج وتوزيع الكتب، وهذا ما يبينه بشكل خاص رواج سوق كتب الجيب، ولكن يوجد فى هذا المجال كما فى الميادين الإعلامية الأخرى، فروق أساسية وعميقة يدل عليها الجدول التالى لإنتاج الكتب عام (١٩٧٦):

إن صناعة الكتب تشكل جزءًا من القطاع العام والخاص حسب النظام السياسى والاقتصادى للبلد. وفى كثير من البلاد تدخل هذه الصناعة ضمن النشاط الخاص، وإن وجد إلى جانبها نشاط حكومى متطور فى هذا المجال، ومثال ذلك، فى الولايات المتحدة: (Government Printing Office) وفى المملكة المتحدة (Her Majesty Instationery Office) أما فى البلاد الاشتراكية فتشكل صناعة الكتب جزءًا من الاقتصاد الوطنى المخطط. هذا وقد طبق عدد كبير من البلاد النامية نظامًا مختلطًا وذلك لسببين:

(أ) عجز النظام الخاص عن الوفاء بالاحتياجات مما يجبر الحكومات على أن تتولى بنفسها أمر النشر.

(ب) الأهمية القصوى لإنتاج الكتب المدرسية.

---

(٦) د. سليم عبد الأحد - النشاط الإعلامى الأمريكى الرسمى فى العالم العربى - شئون عربية - العدد ١٧.

المناطق الكبرى	عدد الكتب بالآلاف	النسبة المئوية للتوزيع		
		لكل مليون من السكان	إنتاج الكتب	السكان
العالم	٥٩١	١٨٦	١٠٠	١٠٠
أفريقيا (بما فيها البلاد العربية)	١١	٢٦	١,٩	١٣,٠٠
آسيا (بما فيها البلاد العربية)	١٠٠	٧٠	١٦,٩	٤٥,٢
أمريكا الشمالية	٩١	٣٨٢	١٥,٤	٧,٥
أمريكا اللاتينية	٣١	٩٣	٥,٢	١٠,٥
أوربا	٢٦٩	٥٦٥	٤٥,٥	١٥,٠
أوقيانيا	٥	٢٢٧	٠,٨	٠,٧
الاتحاد السوفيتى	٨٤	٣٢٦	١٤,٢	٨,١
البلاد العربية	٦	٤٠	١,٠	٤,٥
البلاد المتقدمة	٤٩١	٤٣٤	٨٣,١	٣٥,٦
البلاد النامية	١٠٠	٤٩	١٦,٩	٦٤,٤

وقد دفع الاقتصاد الحديث صناعة النشر إلى الانتقال من الطور الحرفى إلى طور الإنتاج على نطاق واسع. وقد أدى هذا التطور بكثير من الناشرين إلى الاندماج فى شركات إعلامية أو مالية، مما أدى إلى نتائج سياسية وثقافية هامة على الصعيد الدولى.

وكانت الطباعة أول وسيلة إعلام جماهيرية صالحة للتصدير، وساعد على ذلك نشاط الناشرين الأوربيين فى خلق الأسواق، ثم تأسيس الفروع فى المستعمرات القديمة. وفى عام ١٩٧٥ بلغ حجم الصادرات البريطانية ١٣٣ مليون جنيه استرلينى أى ما يعادل ٤٠٪ من مجموع مبيعات أصحاب دور النشر والمكتبات البريطانيين. أما صادرات الولايات المتحدة من الكتب فقد بلغت حوالى ٣٠٠ مليون دولار فى عام ١٩٧٦ وهى تزداد بمعدل سنوى قدره ١٠٪. وقد شكلت الكتب المدرسية من أصل هذه الصادرات ١٩٪ فى المملكة المتحدة ٣٠٪ فى الولايات المتحدة الأمريكية بينما بلغت نسبة الكتب العلمية ٢٦٪ والتكنولوجية ١٦٪. وكان من شأن تطور أسواق التصدير هذه وبخاصة فى مجال التعليم حيث سبب نمو النظم المدرسية ازديادًا فى الطلب على الكتب وغيرها من المواد التعليمية والمواد السمعية البصرية، كما شجع أصحاب الشركات على توسيع وتنويع أسواقهم فى مجال وسائل الإعلام الالكترونية. وشرع الناشرون كذلك فى ممارسة أنشطة تتعلق بالمجلات التليفزيونية والأفلام وغيرها من المواد التعليمية بالإضافة إلى نشر الكتب. وقد ساعد هذا الدمج على تطوير الطباعة إلى صناعة دولية. وبصورة عامة فقد ساعد هذا على ازدهار العمليات عبر الوطنية فيما يتعلق بوسائل الإعلام.

والمشكلة الأساسية التي يواجهها الكتاب على المستوى الدولى تتلخص فى أن العالم يشهد اليوم تناقضا بين زيادة إنتاج الكتب وبين حدة الجوع للكتاب فى البلدان النامية. ويقدر بعض الخبراء الدوليين نسبة الكتب المدرسية من إجمالى الكتب المطبوعة فى العالم الثالث بما يتراوح بين ٨٠٪ إلى ٩٠٪.

ومن أبرز خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام أنه ينتمى إلى الإعلام المكتوب أى المطبوع. وهذه السمة التي تتعلق بالخصائص الحسية لوسيلة الإعلام لها أهمية بالغة بالنسبة للكتاب. فإذا كان الخبر القصير مثلاً يمكن سماعه فى الراديو فلا يهدر من فائدته كثيرًا عن قراءته فى الصحيفة اليومية، فالكتاب تستحيل إذاعته فى (الراديو) دون أن يهدر معظم دمه. وتتميز الكلمة المكتوبة أى المطبوعة بتحررها من دائرة الاتصال بالتواجد. فالكلمة المنطوقة تتطلب إنسانًا حاضراً. هذا الإنسان قبل الراديو كان لابد من تواجده قريبًا من المتكلم، وأصبح بعد الراديو والتليفزيون لابد من تواجده وقت إذاعة الرسالة الإعلامية. أما الكلمة المكتوبة فإنها تتوجه إلى الشخص الغائب وتحقق هدفها الذى تحققه مع الشخص الحاضر.

يبقى لنا بعد ذلك فى إجلاء خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام موقع الكتاب فى أطراف العملية الإعلامية الأخرى غير الوسيلة، وهى المصدر والمستقبل والرسالة والتأثير ورد الفعل.

المصـدر (Sourse): وهو هنا المؤلف، وفى العرف العام يكون للكتاب مؤلف معلوم، ولكن العصر الحديث شهد اشتراك عدة مؤلفين فى كتاب واحد، كما شهد الكتاب الذى يعده مركز أبحاث أو هيئة، دون تخصيص مؤلف بعينه. والمؤلف والكتاب لا يفصلان بل يمكننا القول بأن المؤلف هو الكتاب وأن الكتاب هو المؤلف. وهذا موضوع الفصل الثانى برمته.

المستقبل (Receiver): وهو هنا القارئ. سواء كان ناقدًا أو باحثًا أو قارئا عاديًا. وقارئ الكتاب بصفة عامة يمتاز بالبحث عن المضمون الجاد. فضلاً عن إجادته للقراءة بطبيعة الحال. وغالبا ما يكون واسع الثقافة، لأن الكتاب يمتاز عادة بالعمق والدراسة بين وسائل الإعلام المختلفة. ومن الطريف أن الثراء ليس سببًا فى إقبال الناس على شراء الكتب. فقد تزهد المجتمعات المترفة فى الكتاب. وتلجأ إلى وسائل أكثر ترفيهًا. وفى إحدى البلدان البترولية قال لى ناشر وأديب ناشيء فى معرض مشكلة توزيع الكتاب: (إن أبناءنا يدفع الواحد منهم (كذا) عند الحلاق لتصفيف شعر رأسه، ويبخل أن يدفع ربع ذلك لشراء كتاب يشذب ما فى رأسه.!).

وقد تكون هناك سمات خاصة للثقافة الوطنية فى مجتمع من المجتمعات تجعل للكتاب أو لنوع من الكتب وضعًا أكثر انتشاراً. فالكتاب الإسلامى يلقى رواجًا نسبيًا فى المملكة العربية السعودية أكثر من غيره، ومن الشائع بين كثير من المثقفين العرب أن العراقيين من أكثر العرب قراءة للشعر، وأن المصريين من أكثر العرب قراءة للقصة الطويلة. وإذا تأملنا تحليلاً أمريكيًا لازدهار الكتاب فى أوربا عنه فى أمريكا فإننا نجد عمقًا تاريخيًا لهذه الظاهرة. ماذا يقول التحليل الأمريكى؟[٧] يقول: إنه مما

---

(٧) وليام ل. ريفرز وآخرون - وسائل الإعلام والمجتمع الحديث (ترجمة د. إبراهيم إمام) دار المعرفة بالقاهرة - ١٩٧٥ ص ٧٠، ٧١.

يلفت نظر الأجانب المولعين بالملاحظة أن الأمريكيين ليسوا قراء كتب. وهناك شيء من الصدق فى تعميمهم هذا. فبينما نجد أن الأوربيين قراء كتب، فإن الأمريكيين يتميزون بقراءة المجلات. وفى الصحف اليومية الأمريكية البالغ عددها١٧٦١ صحيفة حوالى١٢ صحيفة فقط تصدر ملاحق منتظمة لعرض الكتب. وقد فسر بعض مؤرخى الكتب الاختلاف بين الاتجاهات التى يتخذها الأوربيون والاتجاهات التى يتخذها الأمريكيون نحو الكتب، بأنه اختلاف يعود إلى الأغراض التى استخدمت الطباعة من أجلها أصلاً فى القارتين. فيذكر أن الطباعة فى أوربا، قد بدأت فى مجتمعات استقرت طويلاً باعتبارها وسيلة سهلة وزهيدة الثمن لنشر التراث الأدبى المتراكم من كنوز المخطوطات فى العالم القديم وعالم القرون الوسطى. أما فى أمريكا، فقد أصبحت الطباعة قوة هامة للتعمير والتوسع غربًا. ويضيف «لقد غزت المطبعة الأوربية الفكر أساسًا، أما المطبعة الأمريكية فقد غزت العمل أساسًا. وفى أوربا كان معنى الطباعة منذ البداية هو الكتب، أما فى أمريكا فقد كان معنى الطباعة منذ البداية تقريبًا هو الصحف».

الرسالة (Message): وهى هنا ما يتعلق بمضمون الكتاب. إن الأسباب والاعتبارات والسمات التى شكلت لنا حيثيات الحكم على الكتاب بأنه وسيلة إعلام، تنطبق كلها على عنصر الرسالة من عناصر العملية الإعلامية فى مجال الكتب. وتحديد الإعلاميين لمفهوم الرسالة بأنها جملة المعلومات والأفكار والمعانى والتصورات التى يريد المصدر نقلها إلى المستقبل.. هذا التحديد يتمثل تمثيلاً واضحًا فى الكتاب باعتباره وسيلة إعلام. وما تتعرض له الرسائل الإعلامية ممن يسمون بحراس البوابات، تتعرض له الكتاب، فى بعض الأحيان، ولكن بصورة أقل كثيرًا مما يتعرض له الرسائل الإعلامية فى الصحف والراديو والتليفزيون. وذلك لعدة أسباب:

أولها: سيطرة المؤلف على كتابه واعتداده بذلك.

وثانيها: قصر خطوط شبكات الانتقال بين مؤلف الكتاب وقارئ الكتاب عنها فى الانتقال بين المحرر وبين المستمع أو المشاهد أو قارئ الجريدة أو المجلة.

وثالثها: لأن الاعتبارات الخارجية عن المؤلف وفكرته التى يضعها المؤلف فى حسابه وهو يؤلف كتابًا أقل مثلاً من الاعتبارات الخارجية التى يضعها كاتب «السيناريو» فى حسابه وهو يكتب للسينما أو التليفزيون.

التأثير (Effects): ورد الفعل (Feed Back). إن هذين العنصرين من عناصر العملية الإعلامية يكاد فعلها أن يصل إلى حد الاندماج بالنسبة للكتاب. فالتأثير ورد الفعل لدى ناقدى الكتب أمرًا واحدًا، وهما يقتربان من الأمر الواحد لدى القارئ أيضًا. والتأثير يتميز بالاستمرار بالنسبة للكتاب أكثر من غيره من وسائل الإعلام الأخرى. وتحضرنى واقعة ليست لها دلالة شخصية ولكنها ذات دلالة موضوعية، فى تأثير الكتاب على القارئ، وبخاصة على الشباب الباكر. كنت أقرأ الجزء الأول من كتاب الأيام لطه حسين وأنا بين الحادية عشر والثانية عشر من عمرى، وأنا مولع بالأدب وبطه حسين، فإذا به يذكر العسل - الأسود كطعام له أيام كان طالبًا بالأزهر ويخاطب ولديه بقوله لا قدر لكما أن تريا العسل الأسود. خطرت فى نفسى أشياء - لا أتبينها - عن العسل الأسود وأقلعت عنه، فلم أعد إليه إلا بعد أن تخرجت فى الجامعة، وزال أثر أفكار طه حسين عنى، برغم أن حبى له لم يزل.

ويرى «أدوين أميرى»، «وفيليب هـ. أولت»[٨] أن الكتب وسيلة إعلام ذات أثر بالغ فى حياتنا جميعًا. إنها دليلنا على الماضى، وهى تساعدنا لفهم أنفسنا، وفهم العالم الذى نعيش فيه، وهى تمدنا بالعون لنرسم خطانا للمستقبل بطريقة أفضل. والكتب هى أداة تعليمنا الرئيسية. والكتب وسيلة إمتاع الناس فى كافة أعمارهم.

وحول أثر الكتاب يقول أنيس منصور[٩]: «أعلم مقدما أن من الممكن أن يقرأ ألف شخص كتابًا واحدًا، ويكون هناك ألف أثر مختلف.. ولكن شخصًا واحدًا يقرأ هذا الكتاب ويخرج منه على الناس بمعنى لم يخطر لأحد على بال.. فما أكثر الذين قرءوا كتاب الأمير للفيلسوف الإيطالى (ماكيافللى).. ولكن موسولينى وحده الذى استطاع أن يبنى عليه فلسفته الفاشية..».

تاريخ الكتاب:

إذا سألنا: ما هو أول كتاب عرفته البشرية؟ - ونحن نقصد بالكتاب الكتاب البشرى بطبيعة الحال - نجد أن الإجابة المباشرة شبه مستحيلة. وذلك لعدة أسباب:

أولـها: أن الحفائر وعلماء الآثار لم يقدموا شهادة وافية فى ذلك حتى الآن.

ثانيها: أن وسائل الإعلام بصفة عامة باعتبار ظهورها ظاهرة اجتماعية لا يمكن فى نشأتها التحديد القاطع، حتى فى ظل ظروف التسجيل، وفى ظل حضارة فيها صحافة تفتح عيونها كعيون الصقور. أن الإختلاف حول من بدأ الإرسال الإذاعى فى أواخر العقد الثانى من القرن العشرين يشمل معظم القارة الأوربية من جهة وأمريكا من جهة ثانيه. ومن قبل، فى تاريخ الصحافة لا نستطيع تحديد أول كراسة إخبارية صدرت فى أوربا، حيث عصر الصحف المنسوخة باليد.

إذا أضفنا إلى كل ذلك أن الكتاب أول وسيلة اتصال مكتوبة، وأن تاريخه يعود إلى أقدم عصور التاريخ، أمكننا أنانتدرك استحالة الإجابة عن السؤال إجابة مباشرة حاسمة. ولكن البحث فى تاريخ الكتاب يقودنا إلى تحديد ملامح مضمون الكتاب أى ملامح مضامين الكتب فى طورها التاريخى الأول.

وبعض الذين أرخوا للكتاب ذهبوا مذاهب طريفة فى نشأة الكتب، فقالوا[١٠] بأنها نشأة تختلط مع نشأة اللغة من ناحية، ومع نشأة الفن من ناحية أخرى. وأن ما رسمه الإنسان من صور على الفخار أو على جدران الكهوف تمثل كتب الصور، وأن القصص المصورة كانت صورًا على الخشب أو جلود البقر تحكى حكاية أو أسطورة. ثم كان الكتاب الشفاهى، حيث كانت المشافهة هى الوسيلة الوحيدة لنقل الأفكار. و(الإلياذة) و(الأوديسة) وغيرهما من المؤلفات أنشدها الشعراء المغنون قبل أن تدون بوقت طويل. وبعد اختراع الكتابة بدأ الكتاب المدون منسوخًا. وظل كذلك حتى اختراع المطبعة فى القرن الخامس عشر الميلادى. وغالبًا ما يتحدث المؤرخون عن المادة التى سجل عليها الكتاب من حجر أو

---

(٨) Edwin Emery, Phillip H. Ault, Warren K. Agee- Introduction to Mass Communication- (Second edition)- Dodd, Mead Company, Inc- New york Tronto- 1968 p. 273.

(٩) أنيس منصور - افتتاحية مجلة أكتوبر - بتاريخ ١٩٨١/١٠/٤ م.

(١٠) ايريك دى جروليه - تاريخ الكتاب (ترجمة د. خليل صابات) مكتبة نهضة مصر ومطبعتها - القاهرة - (بدون تاريخ).

صلصال أو فخار ثم جلود وبرديات وحرير ثم ورق وهم يتحدثون عن تاريخ الكتاب. أو يتحدثون عن نشأة المكتبات فى الحضارات القديمة والعصور الوسطى ثم العصر الحديث باعتبار أن ذلك أيضا هو تاريخ الكتاب.

أما محتوى الكتب فإن الغموض يكتنف جوانبها كثيرًا فى تاريخ نشأة الكتب. وبعض مؤرخى المكتبات[١١] وهم يعرضون لتاريخ المكتبات فى عصورها الوسطى يحذروننا عند استعمال كلمة كتب فى تلك العصور، فليس المقصود بها أن تكون الكتب التى نراها الآن تبحث الموضوع من جميع جوانبه، وبشىء من التفصيل. ولكن كتب تلك الأزمان كانت تحوى رسائل صغيرة تبحث فى موضوع معين، أو أمالى مختصرة. أو ملاحظات. وبعض علماء الآثار المصرية ينظرون إلى أوراق «البردى» التى خلفها الفراعنة نظرة أسف. لأن الكثير منها - فى رأيهم - لا يعود على الباحثين بفائدة تذكر عن الحياة المصرية القديمة، لأن ما تضمنه الكثير من أوراق البردى لا يعدو أن يكون نصوصًا سحرية أو دينية. «وكتاب الموتى» المشهور فى التاريخ الفرعونى لم يطلق عليه أصحابه اسم «كتاب»، وإنما اصطلح علماء الآثار على إطلاق هذه التسمية على قراطيس أو لفائف البردى التى تكتب فيها نصوص دينية، كان الغرض منها أن تكون حرزًا للميت تقيه أهوال الآخرة. وهى نصوص متطورة لما كان يكتب قبلها على «الأهرامات» ثم على «التوابيت». وما «كتاب الموتى» إلا صورة متطورة تكتب على لفائف البردى وتوضع مع الميت فى التابوت.

وإذا مضينا مع أوراق «البردى» التى خلفها الفراعنة فإن بعض علماء الآثار يرى ما يوجد فى بعضها من أدب دنيوى لا يتعدى الدائرة الضيقة للمدرسة وقد قصد به حض الطلبة (الكتبة) من الشباب على الفضيلة وحب العلم. وما تقصه علينا هذه الكتب (أوراق البردى) من الحظ الحسن الذى يناله الموظفون المتعلمون. والحظ السيىء الذى يصيب غيرهم من الطبقات.

ويؤكد معظم الأثريين المصريين اهتمام المصريين القدماء بالتعليم، وحضهم أبنائهم عليه. وبسبب عمق الحياة الدينية من جانب، والاهتمام بالتعليم من جانب آخر كانت كثرة النصوص الدينية والتربوية فيما خلفه الفراعنة من برديات. ولكن ذلك لم يمنع أو يحل دون أدب فرعونى خالص. فالدكتور جمال[١٢] مختار يؤكد أن المصريين القدماء تركوا ألوانا مختلفة من الفن القصصى الذى يمثل حياتهم، وقصصا خرافية قصد بها مؤلفها الموعظة. ويضرب أمثلة بأربعة نماذج قصصية. من أهمها وأشهرها «قصص أولاد خوفو» وقد كتب المصريون القدماء تلك القصص بعد أيام خوفو بعشرة قرون ونسبوا حوادثها إليه، وهى لا تعدو أن تصور لنا لونًا من ألوان الترف والرفاهية الذى كان يشيع فى حياة القصور يومئذ.

تصور القصة «خوفو» وقد جلس فى أحد أورقة القصر ومن حوله أبناؤه الأمراء ينقلون إليه بعض ما يعرفون من أنباء الدنيا. ويقصون عليه ما يسليه، ويخفف عن نفسه هموم الملك وأعبائه. ويبدأ أكبر

---

(١١) د. محمد ماهر حمادة - المكتبات فى الإسلام - نشأتها وتطورها ومصائرها - (الطبعة الثانية) - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٨ - ص ٤٦.

(١٢) د. جمال مختار - محاضرات فى تاريخ مصر الفرعونية - كلية الآداب - جامعة الرياض - العام الدراسى ١٩٧٩ - ١٩٨٠م.

الأمراء بتلك القصة التى وقعت حوادثها أيام أحد أسلافه من الملوك. كان من عادته أن يعرج على كاهن ساحر فيتحدث إليه بعض الوقت. وكانت من تحت هذا الكاهن زوج تخونه مع رجل من أهل المدينة. ولما انتهى خبر ذلك إلى زوجها ثارت فى نفسه روح الانتقام. فصور من الطين دمية تمساح ثم تلا عليها من تعاويذ السحر ما أغراها بذلك الرجل حين نزل إلى غدير ليستحم فيه، هنالك أمسك به التمساح ليستقر به تحت الماء سبعة أيام كاملة. وطلب الكاهن من فرعون أن يصحبه ليرى معه أمرًا عجيبًا. ولما بلغا ضفة الغدير نادى الكاهن على التمساح فخرج يجر الشاب. وهناك ارتاع فرعون، ولكنه حين تبين أمر القصة، أمر الكاهن أن يوحى إلى التمساح أن يفتك بالرجل، ثم أمر بزوجة الكاهن الخائنة فحرقت.

ثم جاء دور باقى الأبناء فقص على فرعون القصة الثانية التى وقعت حوادثها أيام الملك «سنفرو» والد «خوفو». لقد كان «سنفرو» ذات يوم محزون النفس، مكتئب القلب، فاقترح عليه كبير كهنته، وكان عالمًا بالسحر، أن يختار بعض جوارى القصر ليجدفن له فى زورق يسبح به على الماء بعض الوقت. وراقت الفكرة فرعون فنفذها على الفور، وأخذت الجوارى يجدفن، وأخذ الزروق يسير، وتسللت البهجة إلى نفس فرعون. غير أن الجوارى أمسكن فجأة عن التجديف. وتلفت فرعون يسأل عن سر ذلك، فعلم أن كبيرتهن تعتقد أن حليها سقطت فى الماء، وتصر على استرجاع حليها تلك. عندئذ أرسل فرعون فى طلب كاهنه ليدبر له الأمر فلما قص عليه القصة، تلا الكاهن على الماء «تميمة..» انشق لها حتى ظهرت الحلية مستقرة فى قاع الغدير، فأخذها ثم ناولها الفتاة، ثم تلا على الماء «تميمة» أخرى فأعاده إلى سيرته الأولى.

أما ثالث الأمراء فقد حدث «خوفو» عن ساحر يعيش فى زمانه، يدعى «ردى» وكان قد نيف على المائة بعشرة أعوام، وكان من عجائب سحره أن يعيد الرأس المفصول إلى مكانه، فبعث «خوفو» الأمير إلى بلدة الساحر فأحضره معه إلى القصر. وقد عاجل فرعون الساحر بالسؤال عن إعادة الرأس المفصول إلى مكانه. فأجاب أنه يستطيع ذلك، فجىء بأوزة وفصل رأسها فوضعه فى طرف من مكان ووضع جسمها فى الطرف الآخر، وقرأ الساحر «تميمته»، وبدأ الرأس يقترب من الجسد حتى اتصل به، فإذا هو مستقر فى مكانه، وإذا بالأوزة حيث تصيح. ثم كرر الساحر نفسه نفس الشىء على ثور أحضر إليه. وبعد أن انتهى الساحر من ذلك، أخبر الملك بأن أسرته سوف تفقد العرش الذى سيجلس عليه أحد الكهنة، ولكن ذلك الأمر لن يتم إلا بعد تولى ابن الملك وحفيده الملك.

وهكذا ترينا مثل هذه القصص صورًا من حياة القصر فى ذلك الوقت. ولكنها تحمل إلينا شيئا آخر أهم من كل ذلك، وهو تلك الألوان من خلق الناس ومن تفكيرهم ومن عاداتهم وشريعتهم، فى ذلك العهد البعيد من عهود مصر.

ومن القطع الأدبية المشهورة تلك القصة المعروفة باسم «قصة الفلاح الفصيح»، وهى ترجع إلى عهد الأسرة العاشرة. وتتضمن هذه القصة شكوى فلاح نزل من وادى النطرون فى الغرب من الدلتا، بحمير له تحمل من الملح ما جاء به ليتجر فيه، حتى إذا ما كان فى بعض الطريق عدا عليه ثرى مر بجانب أرضه، فطمع فيما يملكه الفلاح وسلبه حميره. بعد أن أوسعه ضربًا. وذهب الفلاح إلى الحاكم يشكو إليه أمره، وتمكن من أن يثير إعجابه ببلاغته فى شكواه، حتى لقد أبلغ الحاكم أمر هذه الشكوى

إلى فرعون الذى أمره أن لا يبت فيها ليضطر الفلاح إلى المزيد من هذه الشكايات يأمر فرعون برد حق الفلاح إليه ويأمر بمعاقبة ظالمه. ويقول الدكتور جمال مختار إن القصة آية فى البلاغة، وأسلوب الشكوى رائع أخاذ، فيه كثير من التورية، وإن الصور التى عرضها الفلاح لمظهر صادق لما يضطرب يومئذ فى نفوس الناس (أيام العصر المتوسط الأول) من ضيق بحال البلاد وتبرم بالفوضى التى سادت حياتهم.

أما قصة سنوهى: وهى من القصص الواقعية التى تلقى ضوءًا على الحوادث التى جرت فى مطلع الأسرة الثانية عشرة. وقد بدأت القصة بخبر وفاة الملك (أمنمحات الأول) مؤسس الأسرة الثانية عشرة، بينما كان جيشه يحارب فى الصحراء الليبية، يقوده ولى عهده (سنوسرت)، وكان سنوهى من رجال ذلك الجيش، فلما بلغه خبر وفاة فرعون قرر الهرب على الفور لأن سنوهى كان أيضا من أعداء الملك الجديد فأثر الفرار خشية على نفسه. فلقد دبرت فى أواخر حكم أمنمحات الأول مؤامرات لقتله ولإحلال سنوسرت على العرش، ويبدو أن سنوهى من الحزب المناوئ لسنوسرت. سار سنوهى مشرقا حتى وصل إلى صحراء العريش، وظل يتنقل من مكان إلى مكان حتى استقر به المقام عند أحد شيوخ البدو فى فلسطين، وأغراه الشيخ بالإقامة معه، وزوجه من كبرى بناته، وأقطعه خير أراضيه. على أن حب الشيخ لسنوهى قد ملأ قلوب الطامعين من جيرانه غيرة وحقدًا، وإذا بفتى من فتيان القبائل كان بطلا منقطع النظير مرهوب الجانب يقصد إلى سنوهى ويطلبه للنزال، وحين التقى الخصمان، أطلق سنوهى سهمه الذى استقر فى عنق غريمه، ثم أهوى عليه بفأس فقضى عليه. وعاش سنوهى فى الصحراء عزيزًا مكرمًا حتى أدركته الشيخوخة، فأخذ الحنين يهزه إلى الوطن، ودأب على ن يختم صلواته مناجيا ربه (هلا قدرت لى أن أرى الديار التى أهوى، فليس أعظم لدى ولا آثر عندى من أن أدفن فى الأرض التى ولدت فيها). ثم تصل أخبار سنوهى هذه إلى القصر فيعفو عنه فرعون ويبلغه الأمر الملكى بالعودة إلى الوطن، فلما عاد أحسن فرعون لقاءه وأكرم مثواه ورده إلى مكانه بين رجال بلاطه.

تلك قصة تصور لنا أحوال البلاد السياسية والاقتصادية والحزبية وقتئذ. وهى مرآة صافية لوجه الحياة فى فلسطين. ولقد فتن المصريون القدماء بها، وظل الناس ينسخونها ويتداولونها دهرًا طويلاً.

ثم قصة البحار التى ترجع إلى أيام الدولة الوسطى، وتشبه إلى حد كبير قصص (السندباد البحرى) من ألف ليلة وليلة، وقصة روبنصن كروزو الإنجليزية. وتحدثنا تلك القصة الطريفة عن مصرى ركب فلكًا بالشراع، إلى بعض البقاع النائية، ليؤدى رسالة لفرعون، فلما همت الفلك، هبت على البحر عاصفة هوجاء، حطمت السفينة، فهوت بركابها إلى قاع اليم. ولم يكتب النجاة لغير صاحب القصة. إذ قذفت إليه الأمواج بقطعة من حطام الشراع فتشبث بها، وحمله الموج، ثم قذف به إلى جزيرة منعزلة لا يسكنها أحد. فلما أفاق من هول الواقعة طفق يبحث فى الجزيرة عن رزقه. فوجد فيها خيرًا كثيرًا. ثم لقى هناك رأس حية هائلة، ما كانت الجزيرة إلا جسمها، فروع قلبه. ولكن الحية طمأنته بعد أن أنبأها بقصته، ورق له قلبها، ووعدته بأطيب العيش فى الجزيرة. وبعد بضعة أشهر مرت سفينة مصريه بالجزيرة فحملته إلى أرض الوطن سالمًا.

وقد وضعت القصة فى أسلوب رقيق يعبر عن أجمل العواطف ويستثير روح البطولة والمجازفة، ويصور حياة الملاحين وقتئذ تصويرًا دقيقًا.

هذه نماذج من عشرات القصص والأساطير التى كانت تتناول كافة نواحى الحياة فى مصر الفرعونية والتى منها نتصور جانبًا من الكتاب الفرعونى.

وفى الأدب التهذيبى الذى يصفه الدكتور جمال مختار بأنه عبارة عن تعاليم ووصايا سياسية أو خلقية من فرعون أو إحدى الشخصيات البارزة ويوجهها بصفة خاصة لابنه. ومن ذلك كتاب الحكم لبتاح حتب وهو خير ما يملك التاريخ الفرعونى من هذا النوع من الأدب، فى عصر الدولة القديمة، اتخذ منه المصريون معينًا للحكم والتعاليم، وجعلوا منه أساسًا لأصول التربية والسلوك. والذى يقرأ كتاب (بتاح حتب) يستطيع أن يحكم منه على اتجاه الأدب الفرعونى فى ذلك العهد، وعلى القيم الخلقية وآداب السلوك العام، ويستطيع أن يرى فيه ما لا يشير إلى ارتفاع مستوى الحياة المصرية أيضا. بعض نصائح ذلك الحكم لا تزال نسمعها الآن كما سمعها المصرى منذ آلاف السنين مثل:

(لا تخن من ائتمنك لتزداد شرفًا ويعمر بيتك).

(لا تترك التحلى بحلية العلم ودماثة الخلق).

(كن سمح الوجه ما حييت).

ومن صور الكتاب الفرعونى يمكننا أن نضيف تعاليم أمنمحات الأول لولده سنوسرت فقد كتب الملك أمنمحات الأول، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، وصية لابنه لتكون بمثابة دستور يسترشد به فى حكم البلاد. وقد جاءت هذه التعاليم خلاصة تجارب ذلك الرجل من ناحية، وصورة صادقة لحياته المليئة بالجد والكفاح من ناحية أخرى. وقد كانت تحتل مكانًا رفيعًا بين آداب المصريين فى ذلك العهد. وظاهر من مطلع الوصية أن الملك الشيخ قد امتلأت نفسه بالشك والريبة بعد المؤامرة التى دبرت لقتله، فأخذ يحذر ولده من الناس، بل من أقرب الناس إليه، فيقول مخاطبًا إياه:

«أنت يا من غدوت ملكًا، استمع لما أقول حتى تصبح ملكًا على الوادى، وحتى يمكنك أن تعمل صالحًا. خذ الحذر من عمالك، فما أطاع الناس إلا من أرهبهم. وإياك أن تدنو منهم وحدك، وإياك أن تثق بأخ، أو تصطفى لنفسك صاحبًا، فلا خير فى ذلك كله. ولتكن حارس نفسك عندما تنام حرصًا على حياتك، فلا صديق لامرئ فى ساعة الحرج والشدة. لقد أعطيت السائل وربيت اليتيم، وأعنت المعدوم، ومع ذلك من أكل عيشى هو الذى استعدى الناس على، والذى مددت له يد المعونة ردها بالكبر».

وهكذا يسوق الشيخ النصح لخليفته فى ألفاظ تدل على طول خبرته وتجاربه، وهى فى الوقت نفسه مرآة لقلبه المحزون، ونفسه المليئة بالشك والريبة. كذلك لم يترك المصريون فى زمان الدولة الوسطى وزمان الدولة الحديثة نوعًا من الأدب امتاز بأسلوبه الشعرى الذى يجعله أقرب إلى النظم منه إلى النثر، والذى يمكن أن نسميه أدب الملاحم.

هكذا يمكننا أن نتصور محتوى الكتاب فى الحضارة الفرعونية. فإذا انتقلنا إلى فجر الحضارة العربية نتلمس تاريخ الكتاب وجدنا المعلقات فى الجاهلية أقدم صور الكتاب فى التاريخ العربى. والمعلقات

كما هو معروف فى تاريخ الأدب العربى هى أبرع القصائد للشعراء فى الجاهلية. وأنهم كانوا يعلقونها على الكعبة تعظيمًا وتشريفًا لتلك القصائد. ومهما شك النقاد والمؤرخون فى إجراءات تعليق القصائد. أو شكوا فى كثير من الشعر الجاهلى برمته، فإن شكهم لا ينفى ازدهار الشعر فى الجاهلية، ولا ينفى أن العرب كانوا يعلقون فى أستار الكعبة أو فى جوفها ما يكبرون أمره.

ويروى بعض مؤرخى الشعر الجاهلى أن ملوك الغساسنة المتأخرين كانوا يحتفظون فى خزائنهم بديوان يضم القصائد التى مدح بها الشعراء أجدادهم من الملوك. ولكن هذا الديوان لم يصل إلى المتأخرين منسوخًا أو مكتوبًا، وإنما ظل النقل الشفاهى للقصائد متفرقة حتى عصر التدوين فى الدولة الإسلامية.

والصحيفة المكتوبة فى العهد المكى للنبوة هى صحيفة المقاطعة التى تعهدت فيها قريش بمقاطعة بنى عبد المطلب مقاطعة كاملة لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم. وذلك بغية إجبار أبى طالب زعيم العشيرة وعم الرسول ﷺ وسلم على تسليمه محمدًا أو القضاء على الإسلام. وقد علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم وتشددًا فى المقاطعة. وقد لقى أبو طالب ومعه بنو هاشم (عدا أبو لهب) وبنو عبد المطلب عنتًا شديدًا من الحصار الذى بلغ حد التجويع، حتى نقض بعض أصحاب الصحيفة شروطها الجائرة. ومزقها مصعب بن عدى. ذلك الرجل الذى أجار رسول الله ﷺ عقب عودته من ثقيف بالطائف.

أما الصحيفة المكتوبة فى العهد المدنى فهى أول وثيقة فى تاريخ الأمة الإسلامية عقب الهجرة مباشرة. وفيها بيان الحقوق والواجبات للمسلمين من مهاجرين وأنصار، وللمشركى المدينة، ولليهود. وهذه الوثيقة التى أوردها ابن هشام فى كتابه المشهور عن سيرة الرسول ﷺ. ولم يذكر النص المكتوب الذى نقل منه. ولكن المشهور أنه كتب السيرة عن ابن إسحق بطريقة المشافهة.

وتروى لنا كتب السيرة أن صلح الحديبية كان مكتوبًا. وكذلك تروى لنا كتب الحديث جوانب عما جمع من بعض أحاديث الرسول ﷺ. فقد روى نافع عن ابن عمر أنه وجد فى قائم سيف عمر بن الخطاب رضى الله عنه صحيفة فيها صدقة السوائم. وروى محمد بن عبد الرحمن الأنصارى قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ فى الصدقات، وكتاب عمر بن الخطاب. ووجد عند آل عمر كتاب عمر فى الصدقات مثل كتاب رسول الله ﷺ. قال فنسخناه له. وروى محمد بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما قال أرسلنى أبى، قال: خذ هذا الكتاب فاذهب به إلى عثمان، فإن فيه أمر النبى ﷺ بالصدقة. أما أشهر الكتب أو الصحف التى عرفتها العربية، غير القرآن الكريم، فهو صحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص (٥٧ هـ - ٦٥ هـ). والصادقة تحوى أحاديث عن الرسول ﷺ. وفى تاريخ الإسلام قضية أو مشكلة علمية تتعلق بتدوين الحديث، ذلك أن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده صرفوا جهدهم الأول فى العناية والتدوين والمحافظة على القرآن الكريم، ولم يسمحوا لنص آخر يختلط به أو يواجهه أو يصرف الناس عنه. غير أن المشكلة العلمية التى تواجه الباحثين فى تدوين الحديث هى أنه فى عصر النبوة، ثم فى عصر الخلفاء الراشدين، لم يكن النهى قاطعًا عن تدوين الحديث. ولكن بصفة عامة كان الانصراف إلى حفظ القرآن. ومن الحالات النادرة التى دون فيها بعض الحديث حالة الصادقة. فقد سمح الرسول ﷺ

لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما بكتابة الحديث. لأنه كان كاتبًا محسنًا. واشتهرت صحيفته بالصحيفة الصادقة كما أراد كاتبها أن يسميها. ولم تصلنا الصادقة كما كتبها عبد الله بن عمرو بخطه، وإنما نقل الإمام أحمد محتواها فى مسنده. وضمت كتب السنن جانبًا منها. ومن ثم فإن انتقالها من التدوين إلى المشافهة ثم إلى التدوين يجعل ما نقل منها يخضع لدراسة علماء الحديث. ومما نستشفه عن عبد الله بن عمرو أنه كان باحثًا بالمعنى القريب من البحث العلمى فى عصرنا هذا. أو كان مهتمًا بالكتابة على وجه من الوجوه. فيروى أنه كان يملى الحديث على تلاميذه فى مصر. وأنه عقب معركة اليرموك حصل على كتب كثيرة مما كان فى حوزة أهل الكتاب حملها على بعيرين.

وإذا كانت الصحيفة الصادقة لم تصلنا بخط كاتبها فإن صحيفة أخرى وصلتنا مكتوبة هى الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه (٤٠-١٣١هـ). وهمام ليس صحابيًا ولكنه تابع، أى أدرك بعض الصحابة. لقد لقى همام الصحابى الجليل أباهريرة وكتب عنه كثيرًا من الأحاديث التى رواها عن النبى ﷺ وجمعه فى صحيفة أطلق عليها الصحيحة على مثال الصادقة. ولقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميدالله فى مخطوطتين متماثلتين فى دمشق وبرلين[١٣]. وكان الإمام أحمد قد نقلها بتمامها فى مسنده.

وإلى جانب تلك الجهود المتفرقة فى تدوين الحديث كانت تظهر جهود أخرى فى التأليف المبكر[١٤]، تتمثل فيما ترجم لخالد بن يزيد بن معاوية من علوم اليونان، وما ألف هو من كتب فى الطب والكيمياء، وما ألفه عبيدالله بن شرية لمعاوية بن أبى سفيان من أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها. وقد طبع هذا الكتاب فى «حيدر أباد» سنة ١٣٤٧ هـ. ويرجح بعض المحققين نسبتها لابن هشام. ثم ما ألفه وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠هـ من كتاب التيجان فى ملوك حمير. وقد طبع هذا الكتاب من رواية ابن هشام سنة ١٣٤٧ هـ مع سابقه. كما ذكر بعض الباحثين أن زياد بن أبيه وضع لابنه كتابًا فى مثالب العرب، وأن يونس بن سليمان وضع كتابًا فى الأغانى ونسبتها إلى المغنين، وأن «ما سرجويه» الطبيب ترجم كتاب «أهرن بن أعين» من السريانية إلى العربية.

فإذا انتقلنا مع تاريخ الكتاب إلى عصر النهضة الأوربية، فإننا نجد أنه عندما اخترع جوتنبرج الطباعة (١٤٣٦ م) كان النسخ هو السائد فى إنتاج الكتب. وظل بعد المطبعة لفترة طويلة، ولكن القليل من إنتاج الكتب كان يطبع بطريقة الطباعة الخشبية التى تكاد تشبه (الكليشهات) فى عصرنا هذا. ويحدثنا (أريك دى جروليه) بأنه فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى طبعت على الخشب تقاويم، وكتب مزخرفة لتعليم الأبجدية، وكتب صغيرة تتألف من عشرين إلى ثلاثين صفحة. وهى تشمل كتبًا فى الإرشاد الدينى أو الأجروميات أو كتبًا مدرسية أو كتبًا فى الطوالع. وكانت الصور عنصرًا هامًا فى هذه الكتب. ومطبوعات «جوتنبرج» الأولى مطبوعات صغيرة شبيهة بالتى كانت تطبع بالألواح الخشبية، وهى عبارة عن أربع أجروميات، ونشرة من اثنتى عشرة صحيفة موجهة

---

(١٣) محمد عجاج الخطيب - أصول الحديث (علومه ومصطلحه) - الطبعة الرابعة - دار الفكر - بيروت - ١٩٨١م - ص ظ-ط.

(١٤) عبد السلام هارون - تحقيق النصوص ونشرها - الطبعة الثانية - مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٦٥ - ص ١٢.

ضد الأتراك. وقصيدة باللغة الألمانية للكشف عن الطالع، وتقويم سنة ١٤٥٧ م، ولوحة تبين مواقع الكواكب لمعرفة الطالع ترجع إلى عام ١٤٥٠م. واتجه الطابعون أوالناشرون الأوربيون فى أعقاب اختراع الطباعة إلى طباعة ونشر التراث (اليونانى) القديم. وفى أواخر القرن السادس عشر أصاب خريطة صناعة الكتاب فى أوروبا تغير كبير. فقد ضعفت التيارات التجارية التى كانت سببًا فى إثراء البندقية، واختفى الأمراء والبابوات المترفون حماة الفنون والآداب واضمحل الكتاب الإيطالى. وكانت الاضطرابات السياسية فى ألمانيا سببا فى تأخر الكتاب الألمانى. وكانت الحروب الدينية فى فرنسا سببًا فى تعويق حركة نشر الكتب. وكانت حركة نشر الكتب فى أوروبا فى القرن السابع عشر تحاول تخفيف حدة المنافسة، وتنشيط السوق كلما ألم بها الكساد، وتقاوم الرقابة الحكومية القاسية على المطابع. ثم جاء القرن الثامن عشر فكان عصر الكتاب الذهبى المطبوع فى فرنسا. وكانت باريس فى تلك الآونة المثال الذى يحتذى فى أوربا كلها فى هذا الميدان، فقد سارت على نهجها «لا يبزج» «ومدريد» و«بطرسبرج» وكان أثرها ملموسًا حتى فى أمريكا[١٥]. وكان القرن الثامن عشر كما هو معروف فى تاريخ أوربا الحديث قرن الثورة الصناعية. ولقد صاحب هذه الثورة تقدم ثقافى واسع النطاق فأصبح الكتاب يضم دوائر المعارف، والكتب ذات الأجزاء الضخمة المتعددة. والكتاب المطبوع بالألوان والذى يحوى الصور الفنية والخرائط والرسوم. ومع الثورة الصناعية ونشأة الطبقة العاملة المتعلمة بدأ عصر الكتاب الشعبى الساذج فى القرن السابع عشر الذى كان يطبع على ورقه رديء، ويحلى بصور تافهة، ويحوى مضامين مثل التقاويم وتفسير الأحلام والقصص الخرافية. أصبح الكتاب الشعبى فى القرن الثامن عشر أجود فى طباعته، ويحوى قصصًا أكثر تطورًا وتقدمًا مما كان عليه كتاب القرن السابع عشر. كما بدأت كتب الأطفال فى القرن الثامن عشر أيضا. ثم كان نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وتكسيرها للقيود التى تعوق انطلاق الإنتاج الرأسمالى. وانتشار ذلك فى أوربا بأسرها، كان ذلك كله خطوة باهرة فى إنتاج الكتاب وانتشاره.

الكتاب والتراث:

يرتبط الكتاب بالتراث ارتباطًا وثيقًا. لأنه أهم وأكبر وأخطر أوعية التراث. وفى عالمنا العربى والإسلامى الرباط أوثق. وتبدو كلمة التراث فخمة ومحاطة بشيء من القداسة. فى حين أن التراث عمومًا يحوى أحيانًا أشياء عديمة القيمة، بل وأشياء ضارة، كما أن الأغانى الشعبية والرقص وحكايات الجدات والأساطير وكافة أشكال «الفولكلور» تصنف ضمن التراث. ولكن التراث المرتبط بالكتاب العربى على وجه الخصوص يطلق على كنوز المعرفة التى خلفتها الحضارة العربية الإسلامية فى عصور أزدهارها، برغم ما بها من بعض الشوائب. هذا بطبيعة الحال غير التراث الفكرى الإسلامى الذى يسير فى حياة الأمة العربية سير الدم فى العروق. وهذا التراث (الديناميكى) قد نحس به وقد لا نحس ولكنه يحكم حياتنا المعاصرة إحكامًا شديدًا. وهذا الإحكام الشديد ما يجعل مشكلة التراث فى حياتنا المعاصرة مشكلة حية مشتعلة متجددة.

ونحن نستخدم تعبيرات متعددة حول قضية واحدة هى إحياء التراث. فنقول تحقيق التراث،

---

(١٥) ايريك دى جرولييه - (مرجع سابق)، ص ١٠٧، ص ١١٤.

ونقول مشكلة التراث، ونقول الاهتمام بالتراث. وهذه القضية لا يكاد مفكر عربى إلا ودلى فيها بدلوه.

يقول الدكتور حسين مؤنس[١٦] التراث يشمل ثلاثة أشياء: تراث يختص بالكتب والمؤلفات، وتراث العلم الذى انتقل إلى الغرب وبلاد العالم، وأصبح جزءا من حضارة العالم، وتراث التقاليد والعادات والمأثورات، وهو غير مدون فى كتب وإنما يتمثل فى الناس والأشخاص. فأما تراث الكتب فهو تراث جليل لأن أى أمة من الأمم الماضية لم تكتب من الكتب قدر ما كتب العرب، ويكفى أن أذكر أننا نقدر أعداد الكتب العربية وأعنى (المخطوطات الموجودة فى مكتبات العالم العربى والإسلامى وخارجه) بنحو مليونين من المخطوطات بينما فى المقابل لو أحصينا ما كتبه اليونان والرومان فلن نجد أكثر من عشرة آلاف مخطوط.

إن تراثنا الحضارى العربى الإسلامى قد تناول كل نواحى العلم والمعرفة، التى عرفت فى العصور الماضية، ولم يترك العلماء العرب أو المهندسون أو المعماريون أو الحرفيون أمرًا إلا وطرقوه وخاضوا فى تفاصيله فالأمة العربية أبدت فعالية ونشاطًا كبيرين فى أوج تألقها. والمشكلة أن جانبًا كبيرًا من تراثنا غير محقق ولا مجموع.

ويفرق بعض الباحثين بين تيارين من التراث تيار يمكن أن نسميه التراث المتحفى على حد تعبير الدكتور فؤاد مرسى، وتيار يمكن أن نسميه التراث الحياتى. وهذا التراث الحياتى موصول وموجود فى عروقنا كالدم. إنه التراث المتحرك. ويمكن تلخيص العلاقة الإيجابية بين الكتاب والتراث فى واقعنا العربى المعاصر إلى أربعة نقاط رئيسية هى:

١ - تحقيق المفيد من التراث ونشره والمفيد هنا بمعنى المفيد لحياتنا الحاضرة. فالدكتور زكى نجيب[١٧] عندما يتناول قضية إحياء التراث يرى أنه ليس من الإحياء فى شىء إعادة طبع كتاب اصفرت أوراقه فى كتاب ابيضت فيه تلك الأوراق. أو نقل (المادة) من (مخطوط) إلى كتاب (مطبوع) دون النظر إلى قيمة المخطوط والفائدة التى يمكن أن تجنى من وراء تحقيقه ونشره أولا وقبل أى شىء. وإنما الهدف من الإحياء أن يخرج قارئه ودارسه بروح يستمدها مما قرأ أو درس ليبثها فى حناياه، فإذا هو مصطنع لنظرة جديدة من شأنها أن تعقد الأواصر بينه وبين السلف الذى أحيينا تراثه، حتى لو وقف من مضمون ارثه موقف الناقد أو المتشكك. فالقارئ لديوان المتنبى، مثلا، قراءة إحياء يجب أن يخرج منها وقد سرت فى عروقه كبرياء هذا الشاعر القديم. وقارئ (فكر المعتزلة) القراءة نفسها يجب أن يخرج منه إنسانا يعتد بإرادته الحرة، التى أسبغت عليه كرامة الإنسان، لأنها ألقت على كتفيه تبعات الإنسان. إن هذا الوع من القراءة الإحيائية لا يحول، بأية حال فى أن نقف من شعر المتنبى والفكر المعتزلى موقف الناقد البناء الموجه.

ويرى الدكتور شكرى فيصل أن إحياء التراث ليس عملًا تاريخيًا يرتبط بالماضى بل هو عمل يرتبط بالمستقبل. إنه ليس زينة وليس إشادة عاطفية ووفاء للأجداد وإنما هو سلاح للغد. إنه نوع من الإعداد ولون من كسب الثقة بالنفس.

---

(١٦) د. حسين مؤنس - من حديث معه بجريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٩٨٣/١/٣٠.

(١٧) د. زكى نجيب محمود - إحياء التراث - مجلة العربى - العدد ٢٦٥ - بتاريخ ١٩٨٣/١/٣٠ م.

٢ – البحث فى التراث. أى كتابة بحوث عنه وحوله، ونشرها. لأنه جزء من الفكر الإنسانى. ويرى الدكتور يوسف بكار أن إحياء التراث يظل ضرورة علمية قومية حضارية إنسانية لكل منه تقدر ما يستحق التقدير من تراثها وتحاول أن تفيد منه فى حاضرها ومستقبلها، وتقدمه للإنسانية (هدايا) تنم عن (مقدار مهديها).

٣ – نقد التراث حتى لا يصبح مثل الآبار المسممة، بغير علامات تحذر من يشرب منها. أو مثل السير فى حقل ألغام، بغير خريطة تبين مواقع الألغام، وسبل تجنبها.

٤ – التنسيق بين البلدان العربية حول إحياء التراث ونشره. فما دام التراث ملكا للأمة برمتها ينبغى إذن التنسيق بينها فى نشره. ولو فى أبسط أشكال التنسيق. ففى معظم البلدان العربية مجالس وجمعيات وهيئات وإدارات تعمل فى مجال إحياء التراث ونشره. هذا إلى جانب الجامعات العربية ووزارات الثقافة والإعلام والإرشاد ومراكز البحوث والناشرين. فإذا تمكنت الجامعة العربية ممثلة فى منظمتها المتخصصة فى التربية والثقافة والعلوم فى وضع أساس للتعاون وللتنسيق بين هذه الجهات، لتحققت فائدة كبيرة. إن مجرد إقامة جسور بين هذه الجزر المتفرقة يجعل محصلة الجهد النهائى هى حاصل جمع الجهود الجزئية، فى حين أن عدم الربط بينها يقلل من جهدها بالتكرار والعشوائية والتخبط.

الكتاب والرقابة:

يمثل الكتاب منذ أقدم العصور الصورة المثلى للصراع بين الفكرة وبين السلطة. ولكل عصر صور الرقابة الخاصة به، تلك الصور التى تبدأ بتحريم تناول موضوعات معينة، إلى الرقابة الذاتية التى يمارسها عقل وقلب المؤلف فى مناخ القهر بصورة تلقائية. ولقد شملت الرقابة فى العصور الحديثة التى أعقبت ظهور الطباعة، إنشاء المطابع فى حد ذاتها كما ارتبطت حرية إنشاء المطابع مع حرية الصحافة مع حرية نشر الكتب برباط واحد. كانت سلطة الدولة وسلطة الكنيسة تنظران إلى الكتب وإلى الصحف باعتبارها تهديدات لسلطانها. وكان هنرى الثامن فى عام ١٥٢٩ م مثلاً فى إنجلترا يحاول السيطرة على المطابع بقائمة من الكتب الممنوعة. لقد فرضت معظم الحكومات المستبدة فى أوربا الرقابة على إنشاء المطابع فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وكان الصراع حول حرية الصحافة وحرية نشر الكتب سلسلة متصلة الجولات بين المستبدين وأنصار الحرية فى أوربا بعد اختراع الطباعة. حتى كان النصر الحاسم لأنصار الحرية، بفضل الثورات التى رفعت شعار الحرية مثل الثورة الفرنسية ١٧٩٨، وبفضل الحروب الأهلية مثل الحرب الأهلية البريطانية فيما بين عامى (١٦٤٢ – ١٦٤٩)، وبفضل الإصلاح الدينى فى أوربا، والتحرر من السلطان الكنسى الخانق. وتاريخ العلاقة بين الرقابة والكتاب فى أوربا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر يحفل بالنماذج المختلفة للصراع بين الكتاب وسلطان الكنيسة والسلطان الدنيوى، فكتاب الأمير المشهور لمكيافيلى الذى طبع فى عام ١٥٣٢ بترخيص من البابا «كليمنتى»، وصفه بعض أساقفة الكنيسة بعد ذلك بأنه كتب بأضابع الشيطان، وفى عام ١٥٥٧ أصدر البابا بولس السابع منشورًا يلصق فيه الكفر لمكيافيلى الذى توفى قبل طبع الكتاب، وأصبح الكتاب من المحرمات. وطالب «الجزويت» فى إقليم «باڤاريا» بإحراق الكتاب، فى القرن السادس عشر. والواقع أنه فى أثر ظهور الطباعة أصدر كبير أساقفة مدينة

«مينز» الألمانية مهد الطباعة الأولى مرسوما فى عام ١٤٨٦ بوجوب مراقبة المطابع حماية للكنيسة. ثم تلت ذلك مراسيم بابوية فى هذا الشأن. وفى عام ١٥٦٣ بدأت الكنيسة الكاثوليكية فى نشر قوائمها بالكتب المحرمة. أما فى جامعة باريس فكانت كلية اللاهوت بها هى المختصة برقابة جميع المؤلفات الدينية منذ عام ١٥٢٦.

وإذا كانت العلاقة بين الكتاب وبين الرقابة مشكلة عادية فى الكتب العامة فإنها مشكلة خاصة فى الكتب التى تتناول أمورًا عسكرية. ماذا يحدث عندما ينشر قائد عسكرى هارب كتابًا يحوى أسرارًا وخططًا ووثائق يحظر نشرها بكل الأعراف العسكرية والدولية؟. وماذا يحدث إذا كانت السلطات تمنع فى الداخل نشر ما يتعلق بحرب مضت لتدفن قصورها وتقصيرها فى الظلام؟ إن هذين التناقضين أثارا أنيس منصور[١٧] (عام ١٩٨٣) بمناسبة نشر كتابين إحدهما للفريق محمد فوزى عن حرب الثلاث سنوات ١٩٦٧ - ١٩٧٠ م بين مصر وإسرائيل، والثانى من قبل للفريق الشاذلى عن حرب ١٩٧٣. وقد حوى كل كتاب أسرارًا وخططًا ووثائق سرية. وتساءل أنيس منصور:

«هل لا توجد فى التقاليد العسكرية أو اللوائح أو القوانين ما يحتم مساءلة مثل هذين القائدين الكبيرين؟.. لابد من مساءلة أو لابد من مراجعة، ولكن يجب ألا نمنع أحدًا من نشر ما يعتقده، كيف ذلك؟

يجيب: نفعل ما فعلته إسرائيل مع قادتها العسكريين. فهم لابد أن يقدموا أصول الكتاب للجنة رقابة يرأسها وزير العدل. هذه اللجنة مهمتها حماية الأمن القومى. فتحذف من الكتاب ما تراه ضارًا بالأمن القومى فقط. ويحق للمؤلف بعد ذلك أن ينشر كتابه بجميع اللغات. ويستطرد أنيس منصور قائلاً:

ولقد سألت موشى ديان إن كانت الرقابة قد حذفت من كتابه (الاختراق) شيئًا، فقال: عبارة. وسألت «عيزر فايتسمان» إن كانت الرقابة حذفت من كتابه معركة السلام شيئًا فقال: نكتة. وسألت حاييم هرتسوج رئيس إسرائيل الجديد إن كانوا قد حذفوا من كتابه عن (الحروب الإسرائيلية العربية) فقال: منعوا الإشارة إلى أحد المراجع فى آخر الكتاب».

وفى عالمنا العربى الذى خضعت معظم أقطاره إلى السلطان العثمانى حتى القرن العشرين الميلادى كان قانون المطبوعات العثمانى سارى المفعول فى هذه البلدان. وكانت نصوص قانون المطبوعات العثمانى تفرض الرقابة على إنشاء المطابع، وتفرض الرقابة على الكتاب العادى، وتفرض رقابة مضاعفة على الكتاب الإسلامى، فيشمل الترخيص بطباعته موافقة جهات الأمن وموافقة الهيئات الدينية معاً.

وبعد انسلاخ مصر من الحكم العثمانى، وبداية عصر محمد على فى القرن التاسع عشر، فرضت الرقابة على الكتب على أثر واقعة مثيرة. برغم أن المطبعة كانت تابعة للوالى.

ويروى الدكتور إبراهيم عبده[١٨] نقلاً عن (بروشى) (Brocchi) الملابسات التى جعلت محمد على

---

(١٨) د. إبراهيم عبده - محنة الصحافة وولى النعم - سجل العرب - القاهرة - ١٩٧٨ ص ٨ - ٩.

يصدر أمرًا فى ١٣ يوليه ١٨٢٣ يلزم المؤلف أو الناشر الذى يطبع كتابًا فى المطبعة الأميرية بالحصول على إذن خاص منه بطبعه فيقول:

«كان بين مدرسى مدرسة الفنون الجميلة الإيطالى بيلوتى (Bilotti) وقد نظم هذا المدرس قصيدة شعرية طويلة سماها ديانة الشرقيين أساء فيها إساءة بالغة إلى الإسلام والمسلمين، ودعا فيها إلى التهوين من أمر هذا الدين والسخرية برجاله، وقد اتفق (بيلوتى) سرًا مع نقولا مسابكى أفندى ناظر مطبعة بولاق على نشر قصيدته فى المطبعة. وكان مسابكى تلميذًا لإيطاليا وأحد مبعوثى الوالى فيها، وهو لا يعنيه أمر احترام الدين الإسلامى فى شىء، وإيطاليا فى ذلك الوقت موطن العداء لهذا الدين، فتم طبع القصيدة دون علم الوالى. لكن سولت (Swlt) قنصل إنجلترا فى مصر وقتئذ، كان فى خصومة مع النظام الإيطالى، فرأى هذه الفرصة وسيلة يتوسل بها للإيقاع به، فروى للباشا الخبر وكشف له عن طبع القصيدة بالمطبعة الأميرية، وتبين للباشا أن فى الكتاب فحشًا فى القول وزراية بالدين. إلى درجة أنه يستحيل على أى حكومة أن تقبل ألفاظه أو معانيه مهما تتساهل فى حرية النشر أو حرية القول والكتابة. فأمر محمد على بمخطوط الكتاب فألقى فى النار. وكاد يقتل مسابكى. ولولا شفاعة عثمان نور الدين من رجاله المقربين لتم القضاء على المؤلف وناشره معا. ومن ثم أصدر محمد على أمرا فى ١٣ يولية عام ١٨٢٣ م (٤ ذى الحجة سنة ١٢٣٨ هـ) يحرم طبع أى كتاب فى مطبعة بولاق إلا إذا استصدر مؤلفه أو ناشره إذنا خاصا من الباشا بطبعه، وفرض العقوبة على من يخالف هذا الأمر».

كان هذا الأمر أول قانون ينظم طبع الكتب فى مصر. وقد سبق هذا القانون إنشاء المطبعة الأميرية عام ١٨١٩ التى طبعت كتب الدراسة وما شابهها بطريقة عفوية، حتى حدثت الواقعة التى دفعت بالوالى أن يصدر القانون. كما سبق المطبعة الأميرية وسبق عصر محمد على تشريع نابليون بونابرت الذى أصدره فى ١٤ يناير ١٧٩٩ فى عهد الحملة الفرنسية على مصر. ولكن قانون نابليون جزء من إجراءات الحملة، ومطبعة الحملة رحلت مع رحيل الجنود ولم يبق منها ومن قانون نابليون شىء.

وهذا القانون هو أول قانون للمطبوعات وآخر قانون لها فى عهد محمد على وعهد خليفتيه إبراهيم وعباس:

وفى عهد سعيد باشا صدر القانون الثانى عام ١٨٥٥ الذى ينظم طباعة الكتب وإدارة المطابع. ويتعلق الأمر بصدوره[١٩] بواقعة طريفة. وهى أن مواطنا تقدم لديوان الداخلية يعرض عسر حاله، وأن له دراية بفن الطباعة على الحجر، ولذا يطلب السماح له (بتدوير عدة طباعة واحدة لطبع بعض كتب صغيرة لازمة لتعليم الأطفال لأجل سهولة معاشه ومنفعة الأطفال تحت ظل الخديوى).

وعُرض هذا الأمر على المجلس الخصوصى، فأصدر قرارًا هو فى حكم القانون، ينص على أنه (لا مانع من الترخيص لمن يكون ذو معرفة لإدارة مطابع بملازم الحجر لإدارة أمر معاشه، إنما يكون ذلك بعد أن يؤخذ عليه سند الشروط من ورق الدمغة على الوجه المشروع) ثم يذكر القرار خمسة شروط وخاتمة.

الشرط الأول: أن يتقدم المؤلف أو من يريد الطبع بنسخة مما يريد طبعه إلى نظارة الداخلية

---

(١٩) المرجع السابق ص ١١، ١٢ - ١٣ نقلا عن محفوظات عابدين - دفتر مجموعة إدارة وإجراءات ص ٢٠٧.

(لأجل مطالعتها والنظر فيها. إن كانت مضرة للديانة ولمنافع الدولة العلية والدول الأجنبية والعامة أم لا ومتى وجد أن لا مانع من طبع ذلك ووافق هذا بالديوان فيعطى إليه الرخصة اللازمة وإن طبع شيء من هذا بدون إذن يصير من المخالفين).

والشرط الثانى: هو إغلاق المطبعة فى حالة الطبع دون الحصول على الرخصة.

أما الشرط الثالث: فيتعلق بوقف أى مطبوع فيه إهانة للديانة «وللبوليتيقة» والأدب والأخلاق بمعرفة الضبطية.

والشرط الرابع: هو التزام صاحب المطبعة بعدم طبع عدد زيادة من النسخ المتفق عليها وإن فعل يعد سارقا.

الشرط الخامس: ينص على أنه إذا حصل من المطبعجى أدنى مخالفة لهذه البنود فيعد مخالفا للنظام، ويجرى غلق مطبعته ومجازاته.

أما الخاتمة: فتنص على أن يؤخذ تعهد على المطبعجى بقبول البنود الموضحة بالشروط الخمسة.

وقد كان هذا القانون جزءا من التشريعين اللذين أصدرهما سعيد باشا للمطبوعات، أحدهما خاص بالمصريين، والثانى خاص بالأجانب. وعند إنشاء مكتب الصحافة عام ١٨٥٧ تابعًا لحكومة الوالى، أصبح هو الجهة المسئولة عن تنفيذ التشريعين. وأصبح على كل صاحب مطبعة أن يحصل على ترخيص بفتح مطبعته. ولقد حدد القانون الصادر فى عهد سعيد عام ١٨٥٥ آنذاك الكتب الممنوعة من النشر، بأنها الكتب التى فيها مساس بالدين، ثم الكتب التى فيها مساس بسياسة الحكومة الداخلية والخارجية، ثم الكتب التى فيها مساس بالآداب العامة والأخلاق العامة. وفى عام ١٨٨١ بسبب ظروف الثورة العرابية أصدر توفيق باشا قانون المطبوعات المعروف باسمه فى ذلك العام، مشددًا الرقابة على الكتب، حتى نصت المادة الرابعة منه على حجز وضبط أى مطبوع كان فى الأحوال الآتية:

(أ) إذا لم يبرز صاحب المطبعة وصلًا من إدارة المطبوعات بتقديمه كتابة معلنة بسابق عزمه على الطبع أو النسخ المقررة.

(ب) إذا لم يوضح فى كل نسخة اسم ومحل وسكن صاحب المطبعة.

(جـ) إذا أقيمت فى إحدى المحاكم دعوى تتعلق بمضمون ذلك التأليف.

ثم جاء بعد ذلك قانون عام ١٩٣٦، وكانت أهم تعديلاته والقرارات المتعلقة به فى ١٩٥٦، ثم فى عام ١٩٥٧، ثم فى عام ١٩٦٩. ولقد ذكرت المادة العاشرة من هذا القانون أنه يجوز لمجلس الوزراء أن يمنع من التداول فى مصر المطبوعات المثيرة للشهوات، وكذلك المطبوعات التى تتعرض للأديان تعرضًا من شأنه تكدير السلم العام. ويرى الدكتور شعبان خليفة[٢٠] أنه على الرغم من أن القانون لم يذكر غير هذين الركنين لمنع التداول فإن الممارسة الفعلية للرقابة تضيف إليهما عدم تعرض المطبوع للسياسة الداخلية أو الخارجية، أو علاقة مصر بالدول الأخرى. والمنع من التداول يشمل أمورا ثلاثة هى :

(أ) منع النشر.

---

(٢٠) د. شعبان خليفة - حركة نشر الكتب فى مصر - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٧٤ - ص١٥٤.

(ب) الحذف أو التعديل فى نص الكتاب.
(جـ) المصادرة.

وهذه الأمور الثلاثة تتضح من الممارسة الفعلية لهذا القانون الذى تقوم بتنفيذه مصلحة الاستعلامات أو هيئة الاستعلامات.

وتكاد تنحصر صور الرقابة فى بلدان العالم الثالث على ما يلى:

١ – الحصول على ترخيص لنشر الكتاب مسبقا، وفى هذه الحالة يقدم نص الكتاب إلى الجهة المسئولة (وزارة الإعلام أو إدارة المطبوعات) فتراجعه مراجعة دقيقة، وتختم كل صفحة منه، ثم تجيزه بعد فترة من الزمن أو لا تجيزه. وميزة هذه الطريقة أنها لا تعرض الناشر للخسارة بعد طباعة الكتاب وعدم إجازة توزيعه.

٢ – مصادرة الكتاب إذا مس جوهر القيم والمعتقدات. مع إباحة النشر عمومًا. وتلجأ البلدان التى قطعت شوطا فى الممارسة الديمقراطية إلى هذا الأسلوب، وهى غالبًا ما تلجأ إلى المصادرة فى أحوال نادرة جدا.

٣ – الحصول على إذن بتوزيع الكتاب المطبوع فى الخارج بعد مراجعته. وهو ما يسمى الإذن (بالفسح) فى بعض البلدان العربية، أى بأن يفسح أمامه مجال التوزيع وفى هذه الحالة قد يكون الباب ضيقًا شديد الضيق بحيث تصبح قائمة الممنوعات كبيرة جدًا، أو قد يكون المحظور هو ما يمس قيم المجتمع مسًّا مباشرًا أو نظام الحكم مسًّا مباشرًا أيضًا.

٤ – الرقابة المتعلقة بطباعة المصاحف حتى لا يتعرض المصحف للتشويه والخطأ فى طباعته، وهى قائمة فى كافة البلدان الإسلامية بصور مختلفة.

٥ – الرقابة على تصدير الكتاب. وتلجأ إليها بعض الدول لإحكام سيطرتها المالية على التوزيع الخارجى، أو لمجرد التعقيد الإدارى الساذج من الموظفين الحمقى.

وبرغم كل ذلك فإنه من حسن حظ الكتاب فى عالمنا النامى المعاصر أنه ينتمى ديمقراطيًّا إلى حرية التعبير، لا إلى حرية الحركة أو التنظيم. وكثير من بلدان العالم الثالث تسمح بقدر من حرية التعبير، ولكنها تمنع أقل قدر من حرية الحركة بإنشاء تنظيمات أو أحزاب أو جمعيات تضع الأفكار موضع التنفيذ.

مستقبل الكتاب:

يقول الجاحظ فى كتابه الحيوان: «الكتب أبقى من بنيان الحجارة، وحيطان المدر، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثروا الحصون، كذلك كانوا أيام العجم، وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم فى الإسلام، كما هدم عثمان بن عفان صومعة غمدان، وكما حطم الآطام التى كانت تحيط بالمدينة».

وما زال المعاصرون يؤكد قولهم ما قال الجاحظ. فيرى «آدوين امرى»[٢١] وغيره من الباحثين الأمريكيين فى الإعلام أن الكتاب هو وسيلة الاتصال الجماهيرى التى تؤثر على حياتنا أجمعين - كما سبق القول -. فالكتاب ينقل الكثير من تراث الماضى. ولا تستمر حياة الأمة التعليمية والمهنية والاجتماعية بغير الكتاب. فالقضاة لابد لهم من فحص مجلدات القوانين بصورة مستمرة، والأطباء يرجعون دائمًا إلى خزائن الحكمة الطبية والعلاج. ولابد لموظفى الحكومة من الرجوع إلى لوائح القوانين. والمدرسون والطلبة يجدون فى الكتب المقررة المعرفة الشاملة بالتاريخ والفلسفة والعلم والآداب والعلوم الاجتماعية التى تجمعت وتراكمت على مر العصور. والرجال والنساء فى كل عمل من أعمال الحياة يقرءون حتى يظلوا على صلة قوية بما يجرى فى العالم السريع التغير من حولهم، وليجدوا إيحاءً واستجمامًا ولذة، وليكتسبوا معرفة. والكتب، بغير شك، تفسر وتوضح كل وجه من أوجه النشاط. وكانت الكتب الخلاقة من السمات الرئيسية المميزة التى قيست بها كل حضارة عالمية تالية. فعلى سبيل المثال، لقد عكست أعمال أفلاطون وأرسطو محاسن الحياة الأغريقية الباكرة، بل ونقت هذه الحياة. ولقد فحص المؤرخون الاجتماعيون الأدب الإبداعى، كما فحصوا معالم الحضارة لكى يعرفوا حياة شعب ما فى زمن معين ومكان معين.

ولقد أكد «آدوين امرى» ما قاله «كلاونس داى» بأن عالم الكتب هو أكبر إنجازات الإنسان، فلا شىء غير الكتب يبقى نفس البقاء. فالنصب تنهار وتسقط، والأمم تهلك، والمدنيات تنمو وتزدهر ثم تذوى وتموت.. يعم الظلام حتى تأتى أجيال جديدة تعيد البناء الحضارى. ولكن فى عالم الكتب نقع على مجلدات ما زالت شابة وجديدة جدتها يوم رأت النور لأول مرة. ما زال الرجال يسرون لقلوب الرجال بما كان فى قلوب أناس رحل أصحابها منذ قرون.

والدكتور زكى نجيب محمود[٢٢] يقول إن الكلمة تجمع فى طبيعتها بين فن التعبير وفن التشكيل فى آن معا. بمعنى أن العمل الفنى على إطلاقه إما أن يكون ذا طبيعة زمنية، بمعنى أن القطعة الفنية لابد لها أن يمتد استعراضها لدى المتلقى فترة زمنية معينة، كالمعزوفة الموسيقية، أو قصيدة الشعر أو الرواية، أو المسرحية. فهذه كلها أشياء لا تكفيها لحظة زمنية خاطفة، ليلم المتلقى بكل أجزائها دفعة واحدة، بل لابد لها من فترة تمضى منذ يبدأ سماعها أو مشاهدتها إلى أن ينتهى. وإما أن يكون العمل الفنى ذا طبيعة (مكانية)، وذلك عندما يكون معروضًا كلية دفعة واحدة فى رقعة مكانية واحدة، وعندئذ تكفيه اللحظة من المتلقى ليعلم كل ما هنالك، حتى ولو احتاج بعد ذلك إلى تحليل العناصر المكونة له تحليلًا متأنيًا، وذلك هو الموقف بالنسبة إلى صورة أو تمثال. ولقد اصطلحنا على أن نطلق على أن العمل الفنى ذى الطبيعة الزمنية اسم (الفن التعبيرى)، وعلى العمل الفنى ذى الطبيعة المكانية اسم (الفن التشكيلى).

وكل وسيلة من الوسائل الثقافية إما تقع فى مجال التعبير أو فى مجال التشكيل إلا (الكلمة) فهى تشكيل وتعبير معًا. ويشرح لنا هذه الفكرة الباهرة بأننا نستطيع أن نتبين صورًا أربعة فى حياة الكلمة. فهى فى صورتها (المنطوقة) مصنوعة من موجات يهتز بها الهواء، وفى صورتها المسموعة ذبذبات فى جهاز

---

(٢١) Edwin Emery, Phillip H. Ault, Warren K. Agee - Introduction To Mass- Communication. Second Edition- Dodd Mead Company, Inc- Newyork- 1968- p. 273-274.

(٢٢) د. زكى نجيب محمود - الكتاب أولا والكتاب آخرا - مجلة العربى - أغسطس ١٩٨١.

السمع، وفى صورتها المكتوبة كتلة من مادة - كالمداد أو الرصاص أو الطباشير - كأية كتلة مادية أخرى فى الطبيعة، ثم هى فى صورتها (المقروءة) ذبذبات فى جهاز الإبصار. وواضح أن لكل من هذه الصور مميزاتها الخاصة، على أن هذه الصور الأربع - عادة - تقترن معا اثنتين اثنتين، فإذا كانت (منطوقة - مسموعة) كانت أدخل فى مجال التعبير ذى الطبيعة الزمنية، وأما إذا كانت (مكتوبة - مقروءة) فهى عندئذ أدخل فى الفن التشكيلى ذى الطبيعة المكانية. ويمضى الدكتور قائلاً: «إن بيننا اليوم من أخذ يتساءل فيم عناء الكتابة والقراءة فى عصر أصبحت فيه أشرطة التسجيل الصوتى بهذا اليسر كله وهذا الشيوع كله. ويجيب على ذلك بأنه لا ثقافة إلا إذا كان كتاب، وكانت كتابة وقراءة. لماذا؟ لأننا ننظر فى حياة الناس الثقافية كلها. فلا نكاد نرى موقفًا واحدًا لا يتضمن الكتاب (أو قل «الكتابة») بطريق غير مباشر، حتى وسائل التسجيل الصوتى نفسها، ينذر جدًّا ألا تكون مسبوقة بنص مكتوب، قرأه قارئ ليتم التسجيل. يضاف إلى ذلك أن عملية الكتابة والقراءة منطوية على خصائص ذات أثر فى التكوين الثقافى، مما يستحيل أن يتحقق لو اكتفينا بالصوت المسموع وحده، وذلك لأن العملية الرمزية التى تؤديها الحروف والكلمات والجمل - عندما تكون مكتوبة ثم مقروءة - تتضمن حركة عقلية لا تتوافر للإنسان إلا وهو فى درجة عليا من درجات النماء والتطوير؟ وأما الصوت وسماعه، فى قدرة الطفل منذ العام الأول بل هى قدرة فى طبيعة الحيوان، وحين يقول القائلون عن الإنسان إنه يتميز دون سائر الحيوان باستخدامه للرموز، فهم إنما يعنون، ثم هم يشيرون فى تلك الرموز اللغوية إلى الرموز المكتوبة المقروءة أول ما يشيرون، وذلك لأن عملية الكتابة (فالقراءة) فيها من التحليل والتركيب أكثر جدًّا مما تتضمنه من ذلك عملية النطق (فالسمع)، ففى وسع الطفل ذى العامين أن يسمع جملة كاملة ثم ينطق بها دفعة واحدة، مع أن هذه الجملة نفسها لا تستطاع كتابتها إلا بعد إدراك تحليلى لكلماتها وحروفها، أى أنه لابد من معرفة الأجزاء الأولية وطرائق تركيبها. ونضيف إلى فاعلية العقل فى عملية التحليل والتركيب أثناء الكتابة والقراءة فاعلية عقلية أخرى، ليس لها ما يوازيها فى التلقى عن طريق السمع إلا إلى حد ضئيل، وأعنى بها ذلك الحوار الصامت الذى ينشأ بين القارئ والكاتب، وأما فى حالة الاستماع إلى إذاعة، فالسامع أقرب إلى واقف مر به قطار، أطل من نافذته راكب يتكلم، فإما سمعه ووعاه، وإما ضاعت منه الفرصة إلى الأبد. ولم أقل شيئا عن المادة العلمية حين تكون متصلة ومستفيضة، وحين تكون مكتوبة فى أرقام ومعادلات وإحصاءات وخرائط، وحين يكون الموضوع عن فن التصوير والنحت والعمارة، وحين يكون لكتاب معجمًا أو موسوعة أو أى مرجع آخر نلجأ إليه حينا بعد حين».

وفى أوائل عام ١٩٨٢ نظمت مجلة (لير) الفرنسية ندوة عن الكتاب فى عام ٢٠٠٠م[٢٣] اشترك فيها عدد من النقاد والأدباء والناشرين. وكانت حصيلة الأفكار المطروحة فى الندوة جديرة بالاهتمام. ولكن بصفة عامة يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين. قسم يرى أن الكتاب بشكله المعاصر ماض فى طريقه إلى ما بعد عام ٢٠٠٠م، وقسم آخر يرى أن الأشكال الجديدة للكتاب قادمة لا محالة وأنها ستزيح الشكل المعاصر عن مكانته الحالية ليحل الجديد محل القديم. ويمكن الإشارة إلى أقوال المؤيدين لبقاء الكتاب بشكله المعاصر آمادا بعيدة بما يلى:

---

(٢٣) فتحى العشرى - ندوة عالمية عن الكتاب فى عام ٢٠٠٠ جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٢/٤/٢م.

* قال مقدم الندوة: أغلق التليفزيون وتأمل الكتب المرصوصة فى مكتبتك برؤية شاملة وتخيل كم من القضايا والأفكار، وبكم لغة أجنبية قد طرحت.

* ويقول البعض: لا أعتقد أن تطور الأجهزة السمعية والبصرية خلال العشرين عامًا المقبلة قد يكون تطورًا كبيرًا إلى الحد الذى تتوقف له كل المطابع وبالتالى كل الكتب أو بمعنى آخر تتوقف القراءة حتى ولو تم التعليم بتلك الوسائل فالحرف مكتوب والكلمة مكتوبة والعبارة مكتوبة. فهل يمكن أن تقرأ الفلسفة على الشاشة مثلا؟ وهل نتعلم هندسة الخطوط والتصميمات من التليفزيون مثلًا؟ ويؤكد استمرارية الكتاب أن العشرين سنة الماضية لم تسجل هبوطًا فى نسبة المطبوع من الكتب ولا فى نسبة توزيعها.

* ويقول البعض: لأسباب تاريخية سيظل الأدب مكتوبًا. وإن كان التأكيد على هذا يظل مرهونًا بالمستقبل. ويذهب البعض إلى أن القراءة جهد إرادى حر يهيئ السعادة للقارئ. وحضارة الكلمة المطبوعة حضارة قرون طويلة تؤكد أن هذا الجهد يتضمن قيمة أساسية. ولكن هل تحيا حضارة الجهد؟.

* ويقول أحدهم: هنالك فارق كبير على الأقل فى الوقت الحاضر بين ما نتلقاه عن طريق القراءة الفردية وما نتلقاه عن طريق الأجهزة السمعية والبصرية. تلك الأجهزة التى تؤكد على تأصيل عادة القراءة كعادة حضارية أو متحضرة. ويستكمل قوله فى هذا المعنى. إن على الناشرين أن يطمئنوا على الأقل فيما يتعلق بنشر القواميس. فهل يمكن استبدال القواميس بشىء آخر. ولا ننسى (الكتب السماوية) الباقية كما هى على الرغم من نشرها بالوسائل السمعية والبصرية الأخرى.

* ويقول آخر: لا شك أن القضية ليست مطروحة بنفس القدر على مستوى العالم. فالدول التكنولوجية تختلف عن دول العالم الثالث. ذلك أن الوفرة الاقتصادية تجعل المواطن فى غنى إلى حد ما عن الكتاب الذى استبدله بالأجهزة الحديثة. وهذا ما يدعو الناشرين إلى تغيير شكل الكتاب التقليدى ونشره فى شرائط تسجيل أو فيديو أو «فيلم». أما فى الدول النامية فالكتاب يحتفظ بمتعته وفائدته حتى وإن ظل على شكله التقليدى.

* ويقول آخر: لقد تحولت الكتب من الآن إلى شرائط الميكروفلم، ولكن هذا التحول هدفه الحفظ وليس القراءة، أى أن الميكروفلم مرحلة تأتى بعد صدور الكتاب، أو هى مرحلة نتيجة لنشر الكتاب. وعلى الوجه الآخر لماذا لا ننظر إلى الكتاب بتفاؤل على اعتبار أن التعليم فى تطور مستمر، وأن عدد المتعلمين فى تزايد. وبالتالى فإن عدد القراء يتزايد. وهذا يدعو إلى توفير الإمكانيات. ولقد اخترعت ماكينة طباعة (كامرون) تطبع وتقص وتجلد سبعة آلاف نسخة من كتاب يصل عدد صفحاته إلى ٣٠٠ صفحة فى ساعة واحدة.

وفى الجانب الآخر تذهب آراء المخالفين لفكرة بقاء الكتاب فى شكله المعاصر، لآماد طويلة، القول بأن الكتاب قلت قيمته، إما بسبب الرقابة السياسية، أو بانصراف القراء إلى متع أيسر وأسرع تتمثل فى الأجهزة السمعية والبصرية. وتقول إحدى المشاركات فى الندوة: علينا أن نفرق بين الكتب التى تحفظ «الفريزر» (الثلاجة) لحاجتها لوقت طويل للتوزيع وبين الكتب التى تخرج من الفرن إلى القراء وهى ساخنة مباشرة. وأعتقد أن السنوات القادمة لن تعطى اهتمامًا لكتب الثلاجات.

* ورأى آخر تقول صاحبته: أتخيل كتابًا من البلاستيك أقرؤه، ثم أمحو ما قرأت، وأعيد الكتاب إلى الناشر، لكى يطبع عليه محتوى جديدًا فى ثوان، أقرؤه وأمحوه وأعيد الكتاب وهكذا.

هذه الأفكار مجمل ما طرحتها ندوة مجلة «لير». ولقد ذكر أمامى أحد عمداء كليات الإعلام الأمريكيين عام١٩٨١، فى لقاء له بطلبة إحدى الجامعات العربية أن تكنولوجيا الإعلام توصلت إلى تصميم شرائط لجهاز (فيديودسك) جديد، هذه الشرائط تشبه أسطوانة الفونوغراف تسجل عليها صور صفحات الكتب وتعمل بأشعة الليزر. وأنها صممت على أساس استيعابها لصفحات تبلغ ٥٥ ألف صفحة ويستطيع القارئ أن يقلب الصفحات بالضغط على زر. وأضاف بأن ذلك يناسب دوائر المعارف ويسهل عمل الباحثين.

وفى مارس ١٩٨٣ نشرت مجلة العربى الصورة التالية:

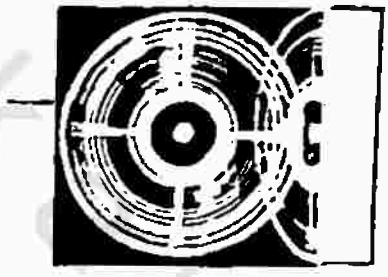

وتحتها عنوان: كتب المستقبل، قائلة:

* «الأسطوانة أو اللفافة التى ترى فى الصورة ليست شريطًا خاصًا بجهاز تسجيل من الطراز القديم.. إنها كتاب كبير، بل موسوعة تقع فى نحو ١٠ مجلدات، وفى حوالى ٦٠٠٠ صفحة، لو كانت لتطبع على ورق على نحو ما تطبع كتب هذه الأيام.. إنها - باختصار - كتاب المستقبل.

ولعل أول ما يلاحظ المرء فى كتب المستقبل التوفير فى الحجم، وبالتالى فى الحيز الذى تشغله الكتب. أضف إلى ذلك الوضوح وسهولة القراءة. قراءة محتويات الكتاب، بل الشريط، بواسطة المنظار الخاص به، ولو نحن ذكرنا أن كتب المستقبل هذه ليست أغلى من الكتب الورقية. بل إنها أرخص منها بنسبة كبيرة لما شك أحد فى أن كتب المستقبل ستكتسح الأسواق دون منازع. فالثمن الذى تدفعه لشراء موسوعة كالتى فى الصورة (١٠ مجلدات × ٦٠٠٠ صفحة) لا يزيد على ٧ دولارات يضاف إلى ذلك ٣ دولارات ثمن المنظار. تلك هى أسعار الوقت الحاضر. وأغلب الظن أنها ستخفض كثيرًا لدى شيوعها فى المستقبل. على أن أسلوب التسجيل فى الكتب الجديدة ليس أسلوب الفيديو. ولعله أقرب إلى أسلوب الميكروفلم، فالأسطوانة الأم تصور عليها محتويات الكتاب بواسطة الأشعة الاكترونية مصغرة بمقدار ١ : ٨٨ - بالنسبة إلى حجمها الأصلى، ويسهل بعد ذلك صنع نسخ بلاستيكية Theimoplastic عن تلك الأسطوانة بكميات كبيرة وتكاليف زهيدة. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الكتب مجهزة بكمبيوتر يمكنك من العثور على الموضوع الذى تريد، وفتح الكتاب عند الصفحة الذى تريد. ويقال إن ربات البيوت سيتخلصن من النعرة التى يحملنها ضد الكتب الورقية وذلك على الأقل

بالنظر لما تتيحه الكتب الجديدة من توفير فى المكان». وخلاصة القول فيما يتعلق بمستقبل الكتاب يمكن إيجازها فيما يلى:

* الكتاب والصحيفة يربطهما ميراث مشترك ولا شك أن لهما مصيرًا مشتركًا. ومن هذه الرؤية تتبين مستقبلاً مزدهرًا للكلمة المطبوعة، ونموًّا مضطردًا فى المضمون والشكل.

* الثورة التكنولوجية للإعلام المعاصر جعلت الكرة الأرضية تسمى بالقرية العالمية، ولابد من انعكاس ما يحدث فى العالم الغنى المتقدم على العالم الثالث فى مجال النشر بصفة عامة، وفى مجال الكتاب على وجه الخصوص.

* وسائل الإعلام لا تلغى بعضها بعضا، وإنما يؤثر بعضها فى البعض، وكان بالأحرى أن يلغى التليفزيون بظهوره الراديو كوسيلة إعلام. ولكن الذى حدث هو ازدهار الراديو بعد التليفزيون.

* جمهور الوسائل الإعلامية مشترك ولكنه ليس بعلامة (-) على طول المدى، أحيانا يكون بعلامة (+) فمشاهدى الفيلم السينمائى زاد عددهم بالتليفزيون، وإن قلت نسبة ذهابهم إلى دور السينما عن ذى قبل.

* التطور قانون من قوانين الحياة. وخروج الجديد من قلب القديم قانون من قوانين الحياة. وقد انطبق ذلك على الكتاب فى تاريخه الطويل، من حيث الشكل ومن حيث المضمون، ولابد أن ينطبق ذلك على مستقبله. ولكن كيف؟ ذلك ما تجيب عنه الأجيال القادمة وفق ظروفها وحاجاتها. بل إن تفكيرنا لهم فى مجال الكتاب ترف عقلى ساذج، وتطفل على حياة الأجيال. والأخطر من ذلك أنه يصرفنا عن لب قضيتنا مع الكتاب وهى حاضر الكتاب، وكيف نجود ونحسن ونثرى هذا الحاضر. وهذا ما نعنيه بمستقبل الكتاب. المستقبل المنظور.. أو المستقبل المتعلق بنا.